قصة المتنبي

أحمد الجندي

بمَ التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن
ريد من زمني ذا أن يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث
ما دام يصحب فيه روحك البدن

ديوان الشعر العربي الحديث

(٣٢)

وزارة الاعلام
مديرية الثقافة العامة

قصة المتنبي

أحمد الجندي

دار الحرية للطباعة
مطبعة الجمهورية ـ ١٩٧٣

المقدمة

على امتداد هذه الحياة والى الأبد وضع المتنبي بصماته الثابتة فهو شاعر الدهر الذي ملء الدنيا وشغل الناس ..

واذا كانت في حياة كل عظيم قصة فقصة حياة المتنبي العظيم شيء يمتزج فيه الشعر بالفروسية ، والفروسية بالتمرد ، والتمرد بالطموح ..

وبايقاع الشعر واسلوب الشاعر الروائي تحكي الصفحات التالية قصة حياة هذا الشاعر العظيم .

١

مرّ في خاطر الزمان وليد عبقريُ السمات ، عال فريد
أسمر الوجه ، كالمساء جلالا أسود العين ، بائن ممدود
رائع الصوت ، ان سمعت اليه خلت أن الكلام منه نشيد
وكأن الحديث اغنية سكرى وفحوى الحديث معنى جديد
فهو في كل ما لديه غريب أو عجيب ، في غيره مفقود
واذا ما مشى حسبت أريجاً يتولى حيناً ، وحيناً يعود
واذا ما انثنى اليك حسبت الزهر يبدو وراءه أملود
متعة للحياة جاد بها الدهر علينا والدهر ليس يجود
موجة من رجولة فوق بحر يتمطى تياره العربيد
فاذا الشاعر العظيم حديث يتغنى ، ونشوة ، وقصيد

٢

نسب غامض الأصول فما يُعرف شيء عن جده وأبيه
ضيعته الحياة في ظلمة التاريخ ظلماً فضاع أصل ذويه
وشجاه النسيان حتى تولى بفؤاد معذب يرثيه
جعلته الدنيا شريداً فما يعلم ما فاته وما يأتيه
يفخر الناس بالأصول وما يذكر أصلا له يفاخر فيه
كاسف البال ، راح ينظر للدنيا بحزن مؤرق يبكيه
فكأن الأيام سجن رهيب وكأن الوجود صحراء تيه

وكأن الصِّبا ، عقاب شديد ليس فيه من ساعة ترضيه
ذاق فيه الحرمان حتى تشهى كل شيء ينسيه أو يسليه
وكأن الهنـــاء جســـهل فما يهنأ الا بجاهل أو سفيه

٣

قيل عن والد « العظيم »[1] كلام قاله شانىء الهوى نمام
ورماة الغـــلاة بالجهل حتى قيل فيـــه ما عابه الأقـــوام
كان يسقي العطاش في جامع الكوفة ماء يبل منه الأوام
وهو لم يـدرك الشقاء ولم يعرف أباه الا فتى لا يضام
هو من « كندة » وأنعم بهـــاتيك مكاناً ينال فيـــه المرام
قصة المـــاء هذه ، قصـــة اللؤم رواها الخصـــوم واللـــوام
ثار منها حقـــد « العظيـــم » وجاشت نفسه فهي ثورة وضرام
لِمَ لم يسكت الزمان عن الوالد وهو الشهم الذي لا يرام
ولئن ســـامه الزمان بـذُلٍ فستعيى بمجـــده الأيـام
لن يكون العظيـم الا كبيرا لا افتراق لديهما لا انفصـام

٤

هذه « الكوفة » التي عرف التاريخ فيهـــا الأئمة العلمـــاء
أدركت نخوة « الامـام »[2] ولاقت صورة الليث عزمة ومضاء
ورأت مقتـــل « التقي » فـــكان القتـل لؤماً وخدعـــة نكراء
يا لنور الأيام يمضي وشيكاً كسنا البرق يترك الظلمـــاء
هو نور « النبي » أعظم بنور يتجلى على الوجـــود عطـاء

---

(١) نسمي الشاعر اسماء مختلفة في القصة ومنها «العظيم» .
(٢) هو الامام علي بن ابي طالب (رض) .

ضربتـه يد الجبـان خئون السيف شـلاء لا تحس حيـاء
خجل الجرح أن يصيب اماماً ملأ الـدهر نخـوة وإباء
مات عهيـد النبي حين تولى بـطل كان يعجب العليـاء
ومن الشؤم أن يموت عظيم بيـد تظلم العـلى والوفاء
ومن الغبن أن يروح قتيلا مالىء الأرض عفـة وعـلاء

٥

يا لـذل الجبـان يصرع بالسيف عظيم الاسلام فحل الرجال
ما رأى الدهر مثل يوم (علي) فهو حزن العلى على الأبطال
ذلك الجرم مر في الـكوفة الحمراء عند الصباح مر الخيال
مر في خاطـر الصبي[(١)] فكان البدء في قصـة الفتى المتعالي
ضـافه الشعر رائعـاً عبقرياً طيب اللحن ماتـع الأقـوال
كل بيت كأنـه درة الغـــواص ضـاءت على سواد الليالي
عشق النـاس نورها فتراموا نحوها يستقون خمر الجمال
منطق صـادق ، ورأي حصيف يلبس الشعر فيه ثوب الجلال
فاذا الشـاعر العظيم مطـل فوق تلك الرسـوم والأطلال
واذا الشعر صـورة ، ونشيد مشرق الصوت ، كالمجرة ، عـال

٦

درج الطفل يسـأل العلم في بيت عتيق مهلهل الجـــدران
لاح في وجهه الصغير دليـل الشعر والفن والعـلى والبيـان
ورأى « الشيخ »[(٢)] فيه شيئا غريبا من فصـيح الكلام والتبيان

(١) هو المتنبي .
(٢) شيخ الكتاب .

فكأن الحديث منه قصيد وكأن الكلام رجع قيان
يا لدنيا النبوغ تظهر سيماها وراء الهموم والأحزان
شارد في الحياة يقنص منها شارد الوحي والقوافي الحسان
مطرب يسحر السماع بألفاظ تغني بأعذب الألحان
جاد بالشاعر الموفق دهر هو في الشعر سيد الأزمان
فتراءى ، على الوجود ، مبين عبد الناس ما أتى من معاني
قد يزول القصيد يوماً ويبلى غير شعر من شاعر فنان

٧

عاش بين الرفاق طفلاً غريبا لا يراه الرفاق الا كئيبا
يعشق العلم والقصيد ولكن امورا يلقى بها تعذيبا
تركت فوق وجهه أثر الجد وغشت جبينه تقطيبا
لا يحب المزاح الا ابتساما يشبه الحزن صفرة وشحوبا
ويحب الأحلام حتى تخل الحلم جزءا من عيشه ، محبوبا
وتراه كأنه الأمل الشارد قد عاش في الحياة غريبا
واذا ما رأيته أدركت نفسك شيئا في نفسه محجوبا
هو يخفي مستقبلا ورجاء يملأ الأرض رعشة ووجيبا
سوف يدري الزمان أي فتى هذا فقد كان حادثا مرهوبا
شاعر سوف يترك الأرض تهواه وتخشاه شاعرا وخطيبا

٨

حفظ النحو والعروض ، وما شاكل هذين ، عبقريا ذكيا
فأحاط الحساد بالولد النابه يؤذونه ، فيأبى ، تصيا
لا يبالي سخف الطفولة بل جاء ليحي بالمعضلات حفيا

انه يطلب البعيد ويرجو مقعدا ، يزحم النجوم ، عليا
انه الشاعر النبي[1] فلا تعجب لطفل يلوح شيهماً أبيا
يولد المجد نابهاً ثم يبقى بارز الرأي ، راجح الوزن ، حيا
وسيدري الزمان أيَّ فتى يحبو الى المجد ثائراً أو يحيا
فتذكر نبوءة الشعر واعلم أن غصن القريض عاد طريا
أرشفته الحياة ماء جديدا فبدا ناصع الشباب نديا
سوف يغنى به الوجود فيروي شعره الرائع الجديد الغنيا

٩

أخذ الشعر في المسيل كلاماً نيِّر الحرف ، جدولا يتفجر
ثم راحت أبياته تقطع البيد وتطوي الأمداء دراً وجوهر
رقص السامعون يوم دعوه ورأوا فيه عالماً يتصور
صور تنقل الحياة وأمثال من الفكر ، حار فيها المفكر
ودساتير للبقاء كأن الشاعر العبقري يرسم منظر
لم يخلف شيئاً ولم ينس رأياً فهو الحافظ الذي يتذكر
ومشى الشعر ، ليس يعبأ بالناس وكالسيل رائحاً يتحدر
عرف الناس ، يومها ، الشاعر النابغ وهو الصغير ، شكلا ، ومخبر
وتنادى الرواة يستمعون الشعر والكل منصت يتحير
آمنوا بالنبوغ لا يعرف السن فما عنده ليال وأشهر

١٠

وتوالت على « العظيم » ليال كليالي الحداد ، سود طوال
كالأفاعي تفح منها سموم قاتلات ، وذكريات ثقال

(١) اشارة الى نبوءة الشاعر فيما بعد .

تسالك الجفن واجف القلب لا يعرف نوماً ، فنومة أوجال
كيف يحيا ، أم كيف يصنع مجداً ... مثلما يصنع العظام ، الرجال
لا يريد الحياة في « الكوفة » الصحراء ، فالعيش في حماها محال
شاعر ما له نصير وفي ... وعظيم يضيمه الجهال
وقصير أسرى الثراء فيتهد بحقد تحيا به الآمال
أهله[1] جدة تعيش مع الفقر زماناً وما لها أموال
عندها العطف والكرامة والبؤس وهم تنوء منه الجبال
وفؤاد يكاد يقتله الوجد اذا غاب طفلها الرئبال

١١

كيف يحيا في بلدة قرأ التاريخ عنها فما رآها تجود
أنكرت أصله وطاحت بدنياه فأيامه عجاف سود
فاذا مر شيعوه بسخر واذا عاد ، عاده التنكيد
ورأى كيف عاش فيها امام[2] الناس حتى مضى الامام الشهيد
ورنا يرمق الزمان بعين تدرك الشيء وهو عنها بعيد
نظرة النسر من مكان قصي في سماء ضاعت لديها الحدود
فرأى المصلحين كيف أناروا عالماً ناسه ضعاف عبيد
ظلمتهم عهودهم ورمتهم في ظلام الارهاق تلك العهود
وأحاطت بهم قيود من الذل فليست تزول تلك القيود
ثم قامت وراءهم عاليات عقبات من الأذى وسدود

١٢

أرسل الله للحياة رجالا صنعوا المعجزات علماً وفضلا

---

(١) اشارة الى جدته التي رثاها بقصيدة ميمية مشهورة .

(٢) هو سيدنا علي أو سيدنا الحسين بن علي (رض) .

علموا الناس عزة النفس في الدنيا فما يقبلون في العيش ذلا
وأفاقوا على نبي كريم يرشد المؤمنين حزناً وسهلا
وانثنى نحو ذاته شاعر العرب فلاقى مجلاً وعزاً ونبلا
لِمَ لا أُصبح(١) النبي الذي هام به الكون فاستنار وهلا
لِمَ لا ارسل الرسالة من قلبي فأهدي شعبنا وأرشد أهلا
لِمَ لا أنشد الرسالة شعراً عبقري الأداء ينهل نهلا
لِمَ لا يحسب الشعور من الوحي فوحي القصيد ما كان هزلا
حكمة الشعر حكمة دونها كل حديث يشع في الكون عدلا
وكلام عذب يهدهد دنيانا وفي كل خاطر يتجلى

١٣

لا أراني أعيش في هذه الأرض فنفسي يضيق عنها زماني
انني شاعر العروبة ضوئي ملأ الأرض بالمنى والأماني
وبشعري سار الزمان وغنى الركب في البيد مطربات الأغاني
أأعيش الحياة في الكوفة الصحراء بين الاملاق والحرمان
ان في البيد معشراً يتمنى لو يغني قصائدي أو يراني
أنا نجم السماء في ظلمة الليل شعاعي يعلو على كيوان
يهتدي الناس بي فليس يضيعون وشعري خلاصة الانسان
وكأني أحس بالغيب في شعري فشعري حكاية الوجدان
سيرى الناس في حياتي تاريخاً غريب الأنغام والألحان
وسأمضي الى مصيري سهماً أرسلته حرارة الايمان(٢)

---

(١) الشاعر يتحدث الى نفسه .
(٢) تشير القصة الى ما انتاب المتنبي من هواجس قبل تنبوءه .

١٤

جدتي ، جدتي ، اتيتك أرجو قبلة تبعث الرجاء بقلبي
انني شاعر العروبة أبغي أملاً نائياً ، ومجدا لشعبي
ليت أرضى السكون في هذه القرية والقهر مالىء كل دربي
فامنحيني رضى الأمومة اني طائر لا أعيش الا بسربي
انني شاعر الحياة ودنياي جهاد يضم عرباً لعرب
وقريباً ستسمعين بمجدي وسترضين حين يهدأ جنبي
سترين الغبار يحجب وجه الأرض جهماً ما بين طعن وضرب
وسأنأى لكنني سوف أبقى بقصيدي وشهرتي وبحبي
ويقول الزمان بعد قليل انه الشاعر الذي ام[1] لبي
انه الشاعر الذي ملأ الدنيا بذكراه انه المتنبي

١٥

وارتمى الشاعر المودع يروي خد أم لاحت عليه غضونه
غير أن الدموع لم تجر من عينيه فالدمع في الفراق يخونه
ليس يبكي العظيم في الكرب بل يصرخ في قلبه الأسى فيعينه
ان حزن العظيم أقسى من الصخر وما في الحياة شيء يلينه
وبكت أمه[2] فجللها الدمع وسالت على الخدود شئونه
عانقته عناق أم رءوم غاب عنها طفل شجاها أنينه
ومضى الشاعر العظيم بقلب ضاق عن همه فزاد جنينه
هو في هذه الحياة وحيد أين منه صديقه وخدينه

---

(١) تام مثل تيّم .
(٢) هي المقصود جدته .

عظماء الرجـال عقلهم اللماح يحيي وجـودنا ويزينـــــه
هم يسيرون في الحياة الى المجـد فيعنو للسـائرين حـــرونه

١٦

ومضى وحــده يحث خطاه حينما فاتـــه رفاق صـباه
لم يجـد صاحباً ، ولم يلق خلاً فهو فرد ما ان له أشـباه
لا رفيـــق مودع لا حبيب غير دمع جادت به عينـــاه
وأسـيً يغمر الجوانح بؤساً ملأ العيش واحتوى دنيـــاه
(١) يا لبؤس الحيـــاة ، هل أقطـع العيش فقيراً لا أرتضي ما أراه
ألمجد ٍ أسعى ؟ لقد تعب القلب كثيراً ولم يفـــز بمنـــاه
أم لمـال ٍ أريده يجلب العزَّ ويعلي على الرجـــال قنـاه
أنا أرجـــو كليهما فهما لي أمل تبعث الرضـــى ذكـراه
فدعيني ، يا أم ، ابلـــغ مراماً خاطــري مغرم به ، تيـاه
انما المـــال حلية المجد فاغنم حليـــة المجد ، يوم لا نلقـــاه

١٧

لست أنسى عــــداوة الناس للفقر وحال الفقير عند النـاس
انه صورة الضراعة والبؤس ، أســـاه يحار فيـــه الآسي
هو شخص بلا وجود ، وشيء جردته الدنيـــا من الاحساس
هو جرم يعيش ملقىً على الدرب بعيـــداً عن نعمة الايناس
يسخر الناس منه في الصبح والليـــل ولا يلتقي محباً يواسي
هو سلوى الصغار ، يلهو به الجلاس يوماً ان مرَّ بالجلاس

---

(١) ينتقل الحديث كثيرا بين المخاطب وبطل القصة .

لست أنعي أيام فقري اذ عشت مهيناً عهد الشباب القاسي(١)
وسأسعى حتى أمل من السعي ، بقلب صلد شديد المراس
لن يراني الزمان الا غنياً موسراً بين طغمة أنجاس
انهم يخضعون للمال ، فالمال عزيز في عالم الأرجاس

١٨

مرحباً واحة الحياة وأهلاً بجمال الحياة في الصحراء
أنت أم البلاد ، منك أتتنا نفحة الوحي في حمى سيناء
ووداعاً يا « كوفة » البؤس واليأس ، ويا بلدة الأسى والشقاء
في حمى « حمص » لي مكان شهي ومراح خصب ، وعهد رجاء
عالم البيد عالم يخلق المجد ويوري قريحة الشعراء
وبنو « كلب »(٢) الجحاجحة الشجعان ، قوم العلا ، وأهل الوفاء
قد تلقوا شعري بصدر رحيب وأعانوا على عظيم بلائي
فأنا بينهم صديق عزيز وأنا عندهم أسير العطاء
سوف أعلي من شأنهم ، سوف أرعى عهدهم ، بالقصائد الغناء
وسيروي الزمان قصة عهدي بين قوم أعزة نبلاء

١٩

أنا في هذه الديار غريب خاطري شارد وقلبي وجيب
وفؤادي كأنه جمرة النار تلظى في جانبيها اللهيب
ليس لي في الوجود بيت ولا لي فيه مأوى فعيشتي تغريب

---

(١) للمتنبي قصة معروفة يلمح الى هذه الفكرة وهي قصة شرائه البطيخ وهذا رأي خاص به .

(٢) هي القبيلة التي قيل ان المتنبي قد ادعى النبوة بينهم وكانت منازلهم بجوار مدينة حمص السورية .

أنا أسعى الى الحياة ، ولكن حياتي صماء لا تستجيب
همتي همة الرجال ولكن ليس لي من حظ الرجال نصيب
وكأني بالدهر ، يمعن في كيدي فيرمي نباله ، فتصيب
وكأن الشكوك تحدق بي ظلماً فينسى مجدي ، وتبقى العيوب
وكأني عدو كل حسود فوجودي همٌ ، وعيشي لغوب
ربما تخلق الأكاذيب انساناً غريباً ، تاريخه مكذوب
ما له في حقيقة الأمر أصل فهو في شكله العجيب ، عجيب

٢٠

عجباً ، قال لي صديقي بالأمس : أحقاً ما قاله الواشونا
أأنا أدعي النبوة ، لا ، لا أنا حسبي شعر تخطى القرونا[١]
أين مني نبوةٌ تصلح الناس ودين يعنو له المؤمنونا
انه عالم القداسة عندي وأنا مؤمن ، فلم يفترونا
وكتابي « القرآن » منه قبست الدين والشعر ، والحديث المبينا
انه عالم من المعجزات الغُر أحيا بروحه العالمينا
أأنا ادعى النبوة ، حاشا لفتى العرب أن يكون خئونا
انها كذبة الطغام من الحساد والكذب شيمة الحاسدينا
انني مسلم الضمير[٢] ، أقول الحق والحق شرعة العاقلينا
وأنا الشاعر الذي سوف يرضي المجد لفظاً وحكمة وفنونا

٢١

فاستمع قولة يصم لها التاريخ أذنيه خشية واحتقارا
قيل : اني أردت افساد قومي وتصنعت حكمة ووقارا

(١) كان المتنبي ينكر تنبؤه دائما .
(٢) يتهم المتنبي بأنه لم يكن يصلي ولم يكن يصوم رمضان .

ونظمت الكلام[1] سجعاً سخيفاً وجعلت البيان ثوباً مُعارا
وتكلفت أن أقول حديثاً يشبه الآي نغمة واختصارا
لا وربي، ما مرَّ يوماً ببالي خاطر يملأ البوادي عارا
لا وربي، ما جئت أمراً فرياً انما قلت بينهم أشعارا
كل بيت كأنه الفجر معنىً يملأ الليل نوره والنهارا
لست أرضى ما يدعى، أنا شخص أجد الشعر بحري الزخارا
فيه مجدي، ومجد يعرب فاسمع حكمة الشعر ترقص الأدهارا
أنا في عالم القريض، عظيم ليس يرضى غير القريض شعارا

٢٢

ربما تضحك الاساءة من خصم حقير تعاف نفسك شكله
قد رماني بلؤمه فتكبرت عليه فراح يسحب ذيله
ورآني، فغص من ألم الحقد، وولّى يكاد يسبق ظله
ثم لما اختفى رمى بالأقاويل فراح الزمان يحقر قوله
ومشت تهمة تحدث أني أفسد الناس، أو أحاول دوله
وبأني أحتال حيناً، فألقي كلمات مما أحوك، مملة
وبأني ادعيت ما يدعيه أنبياء شادوا بلاداً وملة
كذب الحاسد اللئيم، لقد كان برغم الكذاب، أحمق أبله
أنا من يعرف النبوة وحياً لا يرى الناس في الخليقة مثله
هو قول من السماء رواه سيد العالمين، ياما أجله

٢٣

كل ما قد خشيته، بلغ الجد وأمسيت في عذاب وغم

(١) اشارة الى ما يروى من جُمل قيل ان المتنبي كان يريد أن يجعل منها قرآنا .

سمع الحاكم[1] المغفل ما قال حسود عني ، فقدر ظلمي
ودعاني اليه يسأل عن شأني ، وقد ساءني بعتب ولوم
وتحيرت حين لاح لي الحاكم شخصاً ما فيه ذرة فهم
ثم فكرت في مصير عجيب بين قولين من حسود وفدم
حاسد يملأ المنافذ كذباً وزعيم أغرته سطوة حكم
وأنا الشاعر المقيد أمشي مشية العاثر الأسير ، بهمي
قال : ماذا سمعت عنك فهل قلت حديثاً تبوء منه بجرم
أنبي ؟ كما يقال؟ أم الناس رأوا أن فيك موضع ذم
تارك للصلاة ، والصوم ، ما عشت فيهم ، بلا صلاة وصوم[2]

٢٤

وتململت في مكاني حتى لم أجد ما أجيب ، يأساً وحزنا
أي فكر هذا وأي كلام ليس فيه فكر ، ولا فيه معنى
قلت : ان الحساد هموا بذمي دون ذنب ، وهم يقولون مينا
أنا لا أدعي النبوة ، اني شاعر يكبر النبوة شانا
انها صورة الهداية في الارض ، فأنى ؟ أبغي النبوة ، أنّى[3]
سيدي دع حديثهم ، انه الكذب هراء ، والدس لؤماً وجبنا
انني شاعر ، قنعت بمجدي منبري كل خاطر يتغنى
انني صادح أطير مع الوهم وأعلو من التخيل غصنا
انني باغم ، اردد لحناً عبقرياً ، يا طيب شعري ، لحنا
لا تصدق قول الوشاة ودعهم يملأون الظلام شكاً وظنا

---

(١) اشارة الى قصة سجنه في حمص .
(٢) أشرنا سابقا الى ترك الصلاة والصوم عند المتنبي .
(٣) أنّى : تأتي بمعنى أين ، وبمعنى : من أين وبمعنى : متى .

٢٥

قال : اني صدَّقت قولة واش حينما صدق الكثيرون مثلي
أجمع الناس أن شعرك فيه ثورة تفسح الأذى للمضل
وحديث عن الغيوب يسير الناس منه الى فساد وجهل
ولك المجلس الذي يسحر السمع ؟ فما يسمعون منى قولي
ترك الناس صولة الدين والتقوى فما في حماك شخص يصلي
ومشوا خلف ما تقول من السحر فمن بين راجل أو طفل
كلهم يسألون : أين فتى الشعر ، لقد جاءنا بفن أجل
شعره يملأ الجوانح كبراً فهو ينبوع كل مجد ونبل
وهو روح من العروبة يروي حسنات تُذكي الحماس وتملي
فدع القول ، واترك البيد تهدأ نزوات تجيش فيها وتغلي

٢٦

عدت من لقية الأمير وقد ثار فؤادي وجُنَّ فيَّ ضميري
كيف أمضي ، أم كيف أترك ناساً عرفوا فكرتي ، وأحيوا شعوري
بعثوا فيَّ نفحة المجد حتى فاض شعري بالخاطر المأثور
سوف أبقى لديهم سوف أحيا في مكان سهل الحياة يسير
لست أرضى قول الوشاة ولا الحساد ، اني أعيش في تفكيري
وسأمضي الى رجائي لا أسمع قولاً من حاكم أو أمير
قل لهم يا زمان ، اني نبي في قصيدي ، وأنت خير نصير
أنا في الشعر والقوافي نبي وحيه الفن باقياً في الدهور
أنا دنيا من الشعور تراءت في كلام كالغيث صاف نمير
فارو عني يا دهر شعري واعلم أنني شاعر المرام الكبير

٢٧

وتوالت على « العظيم » ليـال ساهرات طويلـة الأعمـار
أرقت عينه ، وثارت بها النفس ، ففي القلب جمرة من نار
كيف يُخفي على الظلامة شهم عبقري الفؤاد صافي النجار[١]
بلغ النجم بالخيال وسارت عنه أبياته مع الأقمار
وتغنى الزمان بالشعر والحكمة فالدهر منشد الأشعار
غير أن الحظوظ مرتهنات كالليالي ، في قبضة المقدار
هي عمي تمشي ، فتطوي عظيماً وتعين البليد في التيار
وهي حرب على المواهب ترميها بنحسي مخادع ختار
وتثير الأحقاد في كل نفس لم تغد حقها من الأقدار
سُنَّة العيش في الوجود فما تُبصر شهماً موفق المضمار

٢٨

في نهار جهم الصباح كئيب أصبح الشاعر الكبير أسيرا
أحدقت بالعظيم شرذمة تبغي أذاه ولا تراعي شعورا
فرأى نفسه تحيط به الأقدار فانصاع ساكناً موتورا
ومشى بين طغمة من رجال لم يجد عندهم خلاقاً يسيرا
وهو عالي الجبين ينظر للدنيا طويلا فهل رأيت النسورا
لم يجد حوله صديقاً يواسيه ولا ناصحاً يريح الضميرا
فكأن « العظيم » في هذه الدنيا وحيد ينازل المقدورا
وكأن الأحداث جند تباريه وترمي جناحه المكسورا
وكأن السجن[٢] الرهيب مكان يقبع الشعر خلفه مقبورا
وكأن القيد اللئيم عقاب يتلقاه يائساً مقهورا

(١) هناك قول لم يثبت أن المتنبي هاشمي الاصل .
(٢) اشارة الى سجن الشاعر في حمص .

٢٩

ورأى نفسه وحيداً شريدا ورأى حول معصميه الحديدا
فبكى كالهصور ، من غير دمع وشكا كالخضم جَلْداً عنيدا
ومضى يسأل الزمان : أهذا حظ من أسكر الزمان نشيدا
كم تغنى برائعات القوافي وتأنّى يروي الحياة قصيدا
يا لها لله حادثات توالت ضيعت شاعراً وأبقت عبيدا
وتتالت عليه أحلام ماضيه وعمر قد عاشه منكودا
لم يجد فيه ساعة من هناء لم يجد فيه فرحة أو عيدا
حكمة الدهر أن يعيش حزيناً والبرايا تعيش عيشاً رغيدا
وصغار الحياة يلقون مالاً ودلالاً ولذة وسعودا
وارتمى خائر الخيال بقلب يتنزى عداوة وحقودا

٣٠

سكت البلبل السجين وغامت حوله الأرض فهي سجن رهيب
وكأن الوجود كهف عميق وكأن الزمان حلم كئيب
وكأن الساعات أنات قلب يملأ السجن خفقه والوجيب
لا قريب ، لا زائر ، لا صديق سائل عن مصيره ، لا مجيب
ليله كالنهار ؛ لا ضوء فيه ومساه كالصبح ، ناءٍ قريب
لا حدود تلوح ، لا شارةٌ تبدو ، فكل الوجود وهم غريب
وتدور الأصوات من حوله همساً بعيداً كأنه محجوب
وتسير الخطا بوقع بغيض مستمر ، هو العذاب الرتيب
ثم تخفي الأصوات ، فهي صدىً يمضي ، عميقاً ، ويحتويه قليب[١]
وحياة السجين عمرٌ بلا معنىً ، ووقت مع الضياع يذوب

---

(١) البئر .

٣١

ولقد طالت الليالي ورب الشعر في سـجنه يكاد يُجـن
همه ليس كالهموم ، وآلام جواه ، جراحهـا لا تكـن[١]
حسبه أنـه ضحية جـرم كاذب كله خـداع وغبن
قـد رماه الحسـاد بالظلم والكيد فدنيـاه ذكريات وحـزن
ورجوع الى الزمان الذي مرَّ كما مر في الجوانح ظـن
خاب كيد الحساد لن يخمد الشعر عذاب وليس يؤذيه سجن
انه شـعلة السناء ونـور غامر كالنهـار ليس يضن
انه اللفظة المضيئة تهـدي مغرماً شـاقه على البعد لحن
انه نشـوة الحيـاة رواها وتر شاعر الغناء ، أغـن
انه لوعـة الضـمير وحزن عبقري ، يبكيه قلب مرِن

٣٢

جاءه في الصباح صوت بعيـد وصليلٌ ، وضـجة وجنود
فأفاق العظيـم من نوبة اليـأس ومن حوله الرفاق رقـود
لم يذق جفنه حلاوة غمض فهو أسـوان والزمان عنيـد
وأتى الحاكم المؤمَّرُ يمشي وحواليـه عسكر وعبيـد
لؤلؤاً ، كان اسمه ، فتعجب لاسمه ، وهو تافه عربيـد
كان في حمص والياً ووكيلا عن مليكٍ لاهٍ هو « الاخشيد »
قال : قـم فاستوى « العظيـم » وفي عينيـه ما يترك الأمير يميـد
نظرة ترسـل الحقـارة كالسهم ففيهـا ترفـع وصـمود
قال : ماذا تريد ؟ فانتفض « اللؤلؤ » كالطفل ، كيف ؟ ماذا أريـد ؟
ألمثلي يقـال هـذا ؟ واني حاكم ، أحكم المَـلا وأسود

---

(١) بمعنى استتر ، لازم ومتعد ٠

- ٣٣ -

وعلا سحنة « العظيم » ابتسام فيه سخر يحكي ، وفيه كلام
قال : ماذا جرى ، ولم تسجنون الناس ، قل لي ، هل ناسكم أنعام
تحكمون العباد بالظن ، والظن، حرام ومحنة وأثام
ما الذي قد جنيت ، لولا حديث ، لفقته حثالة وطغام
ان تكن حاكماً ، فأني عظيم في كلامي ، وشاعر مقدام
ان لي منبراً توقل سفح الدهر والناس تحته أقزام
ولساني سحر الحياة ، وفن فيه مجد وهمة واعتزام
فدع الشاعر القؤول لدنياه ولا تروِ ما ادعته اللئام
ثم اطلق يدي من قبضة القيد فان العظيم ليس يضام
أنا أعلى من القصاص وأسمى أنا بدر ، والحاسدون ظلام

- ٣٤ -

أيهذا الأمير ، أطلق سراحي فأنا موثق بغير جُناح
وتأمل تجد كلامي شعراً ناصع اللفظ ، مثل ضوء الصباح
شوه المفسدون نور علائي فاستباح الفساد كل اباحي
وانظر الناس كيف يمشون خلفي يتلقون آية الافصاح
قد طويت الكلام قبلي فشعري من حديث القلوب والأرواح
وتذكر أني ، اذا طال عمري ، سوف أعلو الدنيا بغير جناح
سوف أُلقي على الحياة دروساً تطأ المغرضين بالايضاح
أيهذا الأمير ، طال بي السجن ونفسي تواقة للسراح
أطلق البلبل المغرد واسمع نغمات العيدان والأقداح
ونشيداً يردد الدهر أنغام صداه بنشوة وارتياح

- ٣٥ -

وأتى الحاكم المُدل اليه بعيون كثيرة النظرات
قال : فكوا القيود ، عن شاعر العرب ، وزين الرجال والسادات
خاب فأل المدلسين ، وآبو بعقاب الزمان واللعنات
ومشى للعظيم ، والعذر بادٍ بين عينيه راعش النبرات
أنا أخطأت يا ابن (جُعفة)[1] فاسمع عذر قلبي ومقلتي ولهاتي
علم الله انني قد قدرت الشعر ، فالشعر أعظم المعجزات
ولأنت الذي أتيت بسحر الشعر ، بل جئت منه بالآيات
فاخرج الآن راشداً ، وانظم الشعر ، كما كنت ، رائع النغمات
علّم الناس نكهة اللفظ في الدنيا ، وسرّ الحروف والكلمات
واقرأ الدرس ، فالزمان مصيخ سامع ما تقول من أبيات

- ٣٦ -

لا تؤآخذ سفاهة السفهاء وحديث الحثالة العمياء
كل ما قد أتاك ، قد كان لؤماً من أُأس أذلة أدعياء
حسبوا الشعر منعةً وكلاماً من فُشار[2] منمقٍ وهُراءِ
وأرادوا أن يدركوا نعمة الشعر فكانت أنأى من الجوزاء
كلهم خاسر السباق ، بكيءٌ جامد الطبع بيّن الأسواء
فاذا ما مررت ، ماتوا بغيظ واذا لُحت ، خوّضوا في الشقاء
أنت في رأيهم عذاب مقيم وعقاب لطغمة الشعراء
أنت عنوان بؤسهم ودليل الذلّ عند الأذلة الأغبياء
قم اليهم واصفع وجوهاً غلاظاً نضبت من نداوةٍ[3] أو حياء
من سخيفٍ شويعرٍ أو حقيرٍ تسامى عن هذره والعواء

(١) جعفة قبيلة المتنبي واليها ينسب .
(٢) الفشار : الهذيان ويقول المعجم : انه ليس من كلام العرب .
(٣) نَدِيَ الشيءُ يندى ، ندأ ونداوة : ونُدْوَة : ابتلّ .

- ٣٧ -

أشكر الحاكم الأمير بقلبي أنت فرّجت، بعد ظلمي، كربي
أشكر السيد الذي قَدَّر الشعرِ وأحيا الرجاء في قلب حب
لست أنسى أني نجوت من الظلم بحسن الصنيع من كف ندب
طيب الأصل، سيد، عربي لم يخالط دماءه دم خبّ
فاذكرن ما أقول واعلم بأني سوف أُحيي ذكرى الخلاص بحبي
غير أني سأترك الدار تعيى بفساد البغاة في كل درب
سيقيمون في طريقك سداً من عنادٍ، ومن قتال وحرب
ويثيرون كل حين غباراً من كذابٍ، ومن خداعٍ وسب
وستلقى الذي تنبأت من ناسٍ صغار الأصول ليسوا بعُرب
فوداعاً الى ديار الأماني فبحسبي، ما قد لقيت، بحبي

- ٣٨ -

سمع الشاعر العظيم بصوتٍ يعربي النجار صافي الرنين
سيد فارس، أبي كريم هو كالليث رابضاً في العرين
زحزح الروم عن ديار حسانٍ طبقتها خيول غاز حرون
وغزا الأرض بالفخار فخرّ الدهر شكراً للفاتح المأمون
ودعا العرب للنضال ولو لبّوا لزالت أوهام كل خئون
أسد يستعد للغزو والبطش ويمضي كالشمس عالي الجبين
في فؤاد من الشجاعة، ناءٍ عن شكوكٍ وريبةٍ وظنون
لم يرد في الجهاد الا ثواباً خالصاً في الحياة من كل هُون
ذاك «سيف»(١) لدولة هزت الدنيا بسيفٍ مشحذ مسنون
كلما أشهر(٢) الحسام رأيت النسور يبدو وراء صبحٍ مبين

(١) هو سيف الدولة بن حمدان ·
(٢) اشهر السيف شهره :

- ٣٩ -

ايه يا قلب أرسل الشعر نارا وابعث الفن ثورة وانفجارا
ان عهداً رماك بالسجن والظلم لعهد قد كان في الدهر عارا
شاعر العرب يعرف السجن فأقنى يا بلادي مذلة وشنارا
شاعر العرب حقه المجد والعز وسكنى السحاب والنجم دارا
انه كوكب الضياء بليل العرب يهدي المضللين الحيارى
فانتظر يا أمير ، اني آت أطأ البيد والربى والقفارا
أُنشد الشعر يغمر الأرض طيباً ويغني الأيام والأدهارا
يصف المجد للأمير فينشى بعبير المطولات افتخارا
سوف أُحيي الحياة في أُمة العرب فتمشي الى السماء انتصارا
وتعيد الزمان أنضر ما كان فتزهو الحياة فيه اخضرارا

- ٤٠ -

ترك الشاعر العظيم مكان الجور في مطلع الشباب الوريف
ومضى نحو غاية المجد يمشي بخطا خائف ، وهمٍّ مخيف
لم يكن يعرف الأمير ، ولم يجهل محل المجاهد المعروف
فهو في حلبة الجهاد شهير وهو بادي الغنى عن التعريف
سأل الناس فاستوى الناس فيه بين مدحٍ غالٍ ومدح شريف
فاطمأنت جوانح علمتها خدعة الدهر كل شك مطيف
وانتحى سائراً فمر ببدرٍ (١) وابن عمار من خيار السيوف
فارس يحمد العفاة نداه وأمير مثل الحسام الرهيف
كان هذا الأمير يعرف شعر الشاعر النابغ الأبي العفيف
فاستوى يرقب الطريق ليلقى شاعر الحرب بين خير الضيوف

(١) بدر بن عمار من ممدوحي المتنبي وقصته مع الاسد الذي وصفه المتنبي معروفة

- ٤١ -

والتقى في الحياة شعر ورمح في مجال من الاخاء الرفيع
وتبارى الشهمان ، في القول والجود على منبر اللقاء الوديع
يقطعان الأيام صيداً وشعراً فهما صاحبان عند الجميع
وتوالت أيامهم ضاحكات ضحك الزهر في زمان الربيع
بسما للحياة فانهلت الدنيا بياناً من القصيد البديع
واستراحا الى الشباب فعاشا تحت ظل من الهناء مَريع
يالها الله ذكريات حساناً خلبت لب شاعرٍ وخليع
وأفاقا على انتباه من الدهر وبين يشت كل جميع
فاذا ساعة اللقاء نذير مؤذن بالفراق والتوديع
واذا الدهر هدأة ثم تمضي بين وجدٍ وفرقة ودموع

- ٤٢ -

ليس ينس بدر بن عمار يوماً صحبة الشاعر الكبير النابه
يوم لاقى الهصور في حلبة الصيد وظل الممات في أنيابه[(١)]
أسدٌ كالقضاء ينقض برقاً لاح للناظرين تحت سحابه
أرعن الصوت يقلق البيد خوفاً فتولي الأدبار من ترعابه
ثبت « البدر » كالجدار بقلب رابض الجأش ثار خلف اهابه
وأتاه وكان يحمل سيفاً يقطر الموت من عنيف ضِرابه
هاجه فالتقى الشجاعان ، في النقع ، وصالا كالرعد خلف ضبابه
وعلت زأرة فراح بها الشبل صريعاً مرمّلاً بترابه
وخبت ثورة الهصور كضوء راح في الليل ممعناً في غيابه
قصة يسكر الخيال بذكراها وينشى بالخمر من اعجابه

---

(١) قصة الاسد هي التي حكاها المتنبي في قصيدته :
في الخد ان عزم الخليط رحيلا نار تزيد بها الخدود محولا

- ٤٣ -

جاء من جانب الأمير كتاب يطلب الشاعر الذي لا يجارى
سبقته أشعاره فتنادت «حلب»[1] لا تطيق عنه اصطبارا
وابن حمدان ينظم المجد شعراً ويغني السنين والأدهارا
يسأل الناس أين «أحمد»[2] اني ذو اشتياق اردد الأشعارا
فابعثوا من ترون، يدعوه، حتى تضحك اليد فرحة والصحارى
مرحباً شاعر العروبة أهلاً بنبي القريض هادي الحيارى
سوف ترضى عنك الحياة بدار عرفت سيْبَ مجدك المدرارا
أنت من نعمة الزمان على العرب وقد ذقت سجنهم والاسارا
جهلوا قدرك الذي زحم النجم وأوفى على السماء وطارا
انهم يندمون، فاترك أساهم يحرق النادمين ذلاً وعارا

- ٤٤ -

عرف الشاعر العظيم بدنيا لابن حمدان ليس تشبه دنيا
وأرته أحلامه موطن العلم وللشاعر الموفق رؤيا
فرأى عالماً يموج بأعلام تباروا في حومة العلم سعيا
من قريض مجود، وبيان يملأ السمع والأحاسيس وحيا
والنحاة العظام يشقون بالعلم اجتهاداً وما يحسون وهيا
يضعون الأساس، لم يبتغو أجراً ولم يرتووا طعاماً وسُقيا
نحلوا، فالجسوم منهم، ضعاف وجسوم الأفذاذ بالضعف تحيا
ورجال القريض من شعراء جودوا اللفظ فهو باهي المحيا
وتغنوا بكل معنى شهيٍّ فزها صورة، وأينع وشيا
انهم صاغة الرؤى وهبتهم ربة الشعر منطقاً عبقريا

---

(١) اشارة الى سيف الدولة وحلب عاصمته. (٢) هو اسم الشاعر.

- ٤٥ -

فكّر الشــاعر الكبير طويلا قبل أن يزمع الغـداة رحيلا
فبـــلاط الأمير مجلس علـم ضم من أهلــه الرجال الفحولا
فيـه شــعر ، وفيـه فن وفيـه كل ما تطلب القــرائح ســولا
وهو الشاعر الذي يعرف النـاس ويدري الانام جيـلاً فجيلا
وسيلقي على الأمير قصـيداً فيجيــد الغنــاء والترتيـــلا
لن يراه الزمان الا كبـيراً لن تراه الأيام الا نبيـــلا
وسيزجي شعراً تميد له الدنيا ويشفي من الزمان غليـــلا
سوف يأتي الأمير يحمل شــعراً يترك الشــعر بعــده مغلولا
فاذا قال أجبـل الناس حتى يحرم الدهر غيره أن يقولا
هو فرد ، وسوف يغدو وحيـداً وهو يأبى نداً له أو مثيلا

- ٤٦ -

ومضى للأمير بدر بن عمـــار يريد الكلام وهو نفـــور
وكأن الالهـــام أوحى اليــه أو دعـاه الى الفراق شعور
فهو في الليل شــارد الذهن لا يغفي ونوم المعــذبين عسـير
وهو عند النهار منشغل اللبّ فهـمٌ يأتي وهـمٌ يسـير
وتدور الأبيـات في خاطر الشاعر والفـكر خلفهـن يـدور
والقوافي كأنهـــن جيـــاد آبيــات حيناً وحيناً تـــزور
وكأن الألفــاظ في حــومة الصدر هموم تغلي بــه وتمور
والخيال البعيــد يذعن حيناً مطمئناً له ، وحينا يثـــور
ومرائي الحياة وهي ســراع تتبــدى لعينــه وتغـــور
وكأن الساعات سلسلة تمضي ، فتمضي أيــامه والشـــهور

- ٤٧ -

قال : يا بدر ، أنت خـــل وفيٌّ وأنا الصاحب الذي لا يمين
قد دعـــاني الأمير ســـيد حمدان وقلبي من الفراق حـــزين
أنت لي عاذر ، اذا سرت عن دارك والعذر كالصباح مبين
وابن حمدان أنت أدرى به مني فهل لي على السفار معين
ومن العـــذر ما يكون وفاءً فكن الوافي الذي لا يخـــون
أنا ما عشت لست أنسى زماناً عشت فيه وأنت عندي خـــدين
وستبقى ذكراك في خاطر الشعر حـــديثاً ترويه عني القرون
قسماً لن أخون ودك ما دمتُ ، واني أنا الوفي الأمـــين
سوف أمضي غداً ولست عليماً في غدٍ ما يصير أو ما يكون
وغـــدٌ ظلمة تظـــل وسرٌّ هو في خاطر الليالي دفـــين

- ٤٨ -

أنجز الشاعر الكبير حديث النفس شعراً أرضـــى هواه وقلبـــه
متعـــةٌ تغمر الزمان هنـــاءً وغنـاءٌ يعلم النـــاس حبـــه
وكلام كأنه الزهـــر منظوماً ولفظ يكاد يملك لبـــه
درة إثـــر درة ألفتهـــــا صنعة الشعر ، حبة عنـــد حبة
فهي عقـــد تألق النظم فيه وهي سحر في قالب الفن صـــبه
كل حرف صدىً كأنك في جوقـــة لحنٍ أنغـــامه مستحبة
واذا ما سمعت أنشـــودة الشـــاعر أكبرتـــه وزدت محبتـــه
ورأيت النبوغ من خلل الأبيـــات يحكي فيعرف الناس ربـــه
أيهـــا الناس جاءكم عبقري أطلق الشعر حين زحزح كربه
هو في شـــعره نبي فهـــاكم معجزات النبي تملأ دربـــه

- ٤٩ -

يا دعـــاة القـــريض موتوا بغيظ فلقـــد زال عهـــدكم وتولى
جاء موسى يلقي عصـاه وقـد تلقف ما جئتموه افكاً وبطـــلا
فاهجروا الأرض واذهبوا عن ديار عرفتكم عبثاً كبـــيراً وثقـــلا
واسمعوا ما يقول فهو امـامٌ سوف يهدي ويملأ الأرض عـدلا
وانظروا الشعر كيف ينظمه الشاعر فناً يكاد يرفض قـــولا
وغنـــاءً ملحنـــاً ونشـــيداً طاب معنى ، وطـاب لفظاً وشكلا
واتركوا ما صنعتموا فهو تقليـد بغيض قد كان للأصل ظـلا
ارسلوا الشعر من ضـــمير يحس الفن احساس من يرى الفن أصـــلا
انه نبعـــة الشعور ومـــاءٌ هو أشـــهى من الزلال وأحـــلى
يا دعـــاة القريض ليس كـلام الشعر ملكاً لنـاظم يتســـلى

- ٥٠ -

فوداعاً يا « بدر » واذكر صديقاً يحفظ العهد والوداد ويرعى
وادع لي انني أســـير لدنيا تملأ الصدر والجوانح روعا(١)
أنا أخشـى ما يضمر الغيب في عمري وأخشى من الحوادث وقعـــا
ولعلي أعود نحوك أُحيي ذكريات نعمت فيهـــن مرعـــى
ذكريات من الوفاء وعهـــد هو عنـدي أحـلى عهودي نوعـــا
في غـد أبلغ الرجـاء وألقى بابن حمدان موئلاً لي ونبعا
وأميراً يعتز فيـــه قريضي ويريح الحيـــاة عيناً وسمعا
قد عرفت الآلام حتى كأني لست ألقى الا عـداءً ومنعـا
ورمتني الأقـدار بالجور والظلم وقد خاب كل قصـد ومسعى
أنا أمشي الى ابن حمدان أرجـو عنـده ما أريد كرهاً وطوعـا

---

(١) راع فلاناً : أعجبه .

- ٥١ -

حلم الغيب راود الشـــاعر الفحل فروّى آمالـه وخيـــاله
ما عســاه يلقى بقـــرب ابن حمدان أيشفي لقــاؤه بابـــاله
فيرى نعمة الهنـــاء ويرجو البرء من عالم رأى أهوالـه
وبدت في الخيـــال حاضرة « الشهباء » كالطيف ليس يبرح باله
والأمير النبيل يشـــرق كالشمس ويسمو مهـــابة وجلالـــه
ســـوف يرضى عن شعره ويعاطيه كؤوساً من عزةٍ ونبـــاله
انه يومُه الذي غاب عنـــه في ثنـايا الزمان يوم تباله[1]
كيف مرت عليه تلك الليـــالي خاليات من ســـلوة أو علالـــه
جمعت كل همهـــا ورمتـــه فرمت حظـه وشلت نضـاله
وغـداً يقبـل الصباح ويأتي عهد مجدٍ يحيي به آمالـه

- ٥٢ -

لم يكد ينقضي الصباح ، فقد جاء رسول عن شـــاعر الدهر يســأل
انه قادم ، جميـــل المحيـــا أريحي السمات كالضـوء أقبـــل
قال : أين الذي غـــزانا بشـعرٍ هو شمس لـكنه ليس يأفـــل
وأفاق « العظيـــم » من هدأة النوم وقد راعـه السؤال وأشـــغل
قال : ماذا تريد ؟ قال : أريد الشاعر الفـذ فهو للشعر موئل
أنا من جانب الأمير فمرْ ما شئت مني لعلنـــــا نترحـــل
والأمير الحسين[2] ينتظر الشمـــاعر شـــوقاً وقـــربه يتـــأمل
قم لنلقى أبا العشـــائر فالعيش لـــديه كالزهر بالطيب يرفل
وعسى يلتقي القريض بمجدٍ يخصب الشعر في حماه ويقبـل
لا يجـود القريض الا بعيش كنهـار الربيع أو هو أجمل

(١) قد يعزى البله هنا للشاعر او للزمان سواء
(٢) هو اسم ابي العشائر ابن عم سيف الدولة وكان المتنبي ينـــوي السفر الى سيف الدولة فجاءه رسول أبي العشائر هذا .

- ٥٣ -

بهت الشـــاعر العظيم ولم ينبس وقد ضـــاع في الجواب وحـــارا
كان يدري باسم « الحسـين » ولم يعـــرفه قبـــلاً ، الا فتىً مغوارا
فارس من ليوث حمدان ، ندبٌ عاش ليثـاً ، وكان يحمي الذمارا
غـير أن القريض فنٌّ يهمّ الروح والقلب والنفوس الكبـــارا
ليس حـــرباً ، وليس طعناً وضرباً ، انه نغمة كصـــوت العـذارى
انه العطر فاح من خاطر الشاعر طيبـاً يعطر الأدهارا ....
انه خالـــد خلود الليـــالي انه عـــالم كهذي الصحارى
ورنا الشـاعر الـكبير اليه(١) ثم أوما بكفـــه واسـتدارا
قال : هيَّا ، اني رفيقـك ، في الدرب ، واني قـــد اتخذت قـــرارا
ســـيراني الأمير عما قريبٍ فيرى الشعر والعُلى والفخارا

- ٥٤ -

حينما أقبل « العظيم » على دنيا « حُسينٍ » أبي العشائر سُـرا
ورأى دولة ، ومجداً عظيماً يملأ الـروح والجوانح كبرا
والأمير الطريف حلو المعاني رائع في الحديث يختال فخرا
واستراح الأمير حين رأى الشاعر يمشي اليـه ينهل شـــعرا
قال : أهلا بسيد القـــائلين الشعر بالناطق الذي عاش ذخرا
أنت أحييت سُنَّة الشعر في العرب وهيأت للأعاريب نصـــرا
أنت ، أنت الذي ، نموت جميعـــاً وهو باقٍ كالـــدهر يخلد دهـــرا
كلنـــا صائرٌ الى الموت الا كلمات تحيا مع الدهر ذكرا
فتقـدم ومُرْ بما شئت اني لست أعصي لشـاعر العرب أمرا
سوف أبقى ، اذا ذُكِرتُ مع الشاعر ، حياً فالشعر أعظم ذكـــرى

(١) الى رسول أبي العشائر .

- ٥٥ -

قال : اني أتيت عن اعجاب بالأمير المهند القرضاب
قد سمعت الكثير عنك ، وها قد جئت أروي عيني من أحبابي
ان ما يبعث السماع من الرأي لصدق يأتي من الاعجاب
أنا أقبلت كي أراك وأشفي ما بصدري من غلة للشراب
فلقد ضامني وجود أناسٍ من صغار النفوس والأحساب
رفعتهم شموسنا فتولّوا وهم سادة من الأخشاب
وتعالوا على الأنام بلؤم وصغارٍ وخسةٍ وكِذاب
وتباروا سخفاً فكل أمير حقه أن يرى أمير الكلاب
وسِبخٌ يهرب الذباب اذا لاح أتدري برفقه للذباب
أهرمتني الأيام مما أرتني من رجال ضاقوا عن الألقاب

- ٥٦ -

فاستمع أيها الأمير لشكواي نشكواي أنّةٌ من فؤادي
انها صرخة الضمير من الغبن وصوت يضيق عنه مُرادي
وهو لو ظل في الضمير لأمسى جمرةً من تألم واضطهاد
هو لون من الشعور بدا شعراً جليل المعنى بعيد المراد
هو شعر أشقى حياتي وأولاني سقام الأرواح والأجساد
وهو زادي اذا عيت بذي[1] الدنيا وحظي من المنى وعتادي
وهو عوني على الحياة فلولاه لأمسيت طعمةً للعوادي
أنت أحييتني بما نلت من حبّك والحب حليةٌ من وداد
أنت أنسيتني زماناً من البؤس وعهداً من الأذى والفساد
وصغاراً سعوا لقتلي شعراً وهو قتل للشعر والأمجاد

(١) كان المتنبي يكثر من استعمال اسم الاشارة في هذه الصورة .

- ٥٧ -

وقضى الشاعر العظيم زماناً عند هذا الأمير كان رغيدا
نظم الشعر عبقرياً وغناه غناءً أهدى الأمير خلودا
وشدا صادحاً طروباً فهل شاهدت في الروض بلبلاً غريدا
كل بيت يعلو على النقد حسناً قد سما صورة ومعنىً فريدا
غير أن الأيام طالت عليه وهو ما زال في الحياة شريدا
والأمير الخطير في حلب الشهباء قصدٌ كالحلم يبدو بعيدا
شغلت نفسه بلقياه حتى سهر الليل حائراً مكمودا(١)
وأتى في الصباح يطلب إذناً فلقد ملَّ نومه والقعودا
قال : اني أبغي ابن عمك فاعذر صاحباً يقصد الصديق الودودا
شهد الله قد رأيت لديك العز والأنس والرضى والجودا

- ٥٨ -

قال : لولا حسن اعتذارك لم أسمح ببعد عن الأديب الشاعر
قد لقينا بالقرب منك زماناً طيباً فيه متعةٌ للسامر
وحديثاً كأنه نغم الطير بروض مالت عليه الأزاهر
وكلاماً تكاد تلقطه الآذان دراً يزري بقدر الجواهر
غير أن الزمان كان قصيراً وكذا يقصر الزمان النادر
لم تدم لذة لمن ذاق انس العيش والحكم في يمين المقادر
فعليك السلام ما عشت عندي وعليك السلام يوم تسافر
ووداعاً حتى اللقاء ولا تنس صديقاً أحب فيك المشاعر
وعسى أن تعود في قابل الدهر فيحظى قلبي بأكرم زائر
سر الى حيثما أردت بحفظ الله واذكر عهد الخليل الذاكر

(١) مكمود من الكمَد : من أصابه الهم .

- ٥٩ -

وصل الشاعر الكبير الى الشهباء في جحفل من الأخبار
سبقته الى ابن حمدان أشعار تبارت في حلبة المضمار
كخيول الرهان ضمَّرها الجهد فطارت في الدهر كل مطار
وأتى المعجبون يرتقبون الدرب ، يلقون فارس الأشعار
وأتى « أحمدٌ » وبين يديه موكب من مهابة وفخار
وعلى جانبيه هالة مجدٍ من ضياء العقول والأفكار
وبنات القريض يمشين في زهوٍ أمام المعلم الجبَّار
شهرةٌ سدت الفضاء ومجدٌ هو أعلى مجداً من الأدهار
نقل الناس شعره من بلادٍ لبلادٍ نأت عن الأنظار
فكأن الشهباء عرسٌ وجمع الناس فيها بحر خضم جار

- ٦٠ -

ورأى الشاعر الأمير فغامت مقلتاه وراح في أحلام
ما رأى وجهه ولكنه شام بريقاً في وجهه البسام
وتملّى بصورةٍ من شجاعٍ أريحيّ النضال والاقدام
وهزبراً تقاعس المجد عن ادراك ما فيه من صفات عظام
فهو تاريخ أمةٍ تنفض الذل وشعب يزري بكأس الحمام
وهو رمز النفاح عن عزة العرب أمام الغزاة وهو الحامي
والتقى النابغان ، نابغ حرب لا يبارى ونابغ الأقلام
في عناق أملته معركة العرب بدنيا الحروب والأفهام
فكأن القضاء شاء اجتماعاً عبقرياً في غفلة الأيام
ولقاءً يبقى على الدهر ذكراً خالداً في تقادم الأعوام

- ٦١ -

لم يكد يبلـغ العظيم مكاناً في حمى الفارس العظيـم الأمير
حين راب العظيم ، من ملق الناس ، نفاق يطغى على التفكير
فرأى عـالماً يميل مع الكسب وشـعباً يعيش غير بصـير
دبّ فيه الفتور عـن درج المجد فأغفى على صغار الأمـور
وطغت فيه ثورة الخوف حتى عاش في ظلمةٍ من الديجور
ودعتـه الى الأناة شكوك فرأى خلفهـا سواد المصير
ومضى للأمير ، يسـأل إذناً بلقاءٍ يرضي عذاب الضمير
وأتاه من الأمير كـلامٌ يغمر النفس بالرضى والسرور
قال : فليأت ، انـه ليس ضـيفاً انـه صاحب المكان الوثـير
ومضى الشـاعر الكبير ليدلي بحديث مخلـدٍ في الدهور

- ٦٢ -

قال : يا أيهـا الأمير سـلاماً من فـؤادي ، ونفسي المشتاقه
انني شـاعر ، ونفسك أدرى بهـوى كل مهجةٍ خلاقـه
ان للشعر يا أمير محـلاً قـدرته قلوبنـا الخفّـاقه
فهو مجد مخلّد ، وهو دنيا من جلالٍ ، وصحبةٍ ورفاقه
فاعف عني اذا سألتك شيئاً قد يراه المدلّسون صـفاقه
لا تسمني القيـام إن أنا أنشدتك شعري من نفسي الدفّاقـه
وتكرّم بأن أغني شـعري جالساً وليكن جلوسي صـداقة(١)
ولتكن هـذه عـلامة حبٍّ من أمير عشقت منه خلاقه(٢)
فعسى أبلغ السماء بشـعري فاغني شـآمه وعـراقه
وأجـوز الفضـاء أنشـر فيه صادق الشعر حين أُخزي نفـاقه

(١) اشـارة الى ما ورد من طلب المتنبي أن يقرأ شـعره جالساً في حضرة سيف الدولة .

(٢) الخلاق : النصيب الوافر من الخير .

سحك الفارس الأمير ولاحت بين عينيه بسمة للشاعر
وذوى رأسه اليه بعطفٍ مشرقٍ بيّن الملامح ظاهر
قال : قل كيفما تشاء فأني قانع بالذي يريحك ، آمر
أنت حرٌّ فيما تقول فلا تخش ملاماً أو نظرةً من ناظر
انما جئت كي تصحح دنيا من قصيدٍ رانت عليها المساخر
وقؤولاً تقوّم الشعر حتى نجد الشعر مالكاً للخواطر
أنت من نعمة الزمان علينا فامض سيفاً الى رجائك باتر
أنشد الشعر جالساً ، أو وقوفاً فهو سيّان في الحديث الساحر
قد عرفنا(١) ما أنت حتى كأنا أنت ، في الشعر والرؤى والمشاعر
أنت زين القريض ، كل قريض سائرٌ في محيط شعرك دائر

- ٦٤ -

في صباحٍ من الزمان منير أقبل الشعر رافلاً بالزهور
جمع المجلس الكبير أميرٌ راجح العقل ، عارف بالأمور
ضم فيه من كل نطسٍ أريب وعليم بكل شيء خطير
قال : يا قوم ضيفنا اليوم شخص عبقري في فنه المشهور
أريحي الكلام يرسل شعراً رافل اللفظ بالرؤى والشعور
يطلق اللمحة الغنّية بالحس ويأتي بالوحي والتصوير
ويغني الحياة أبدع لحنٍ من بديع منمّق ونضير
فاسمعوا قوله ولا تبخسوه حقه من نصاعة التعبير
سوف يأتيكم فيلقي عليكم شعره بين سامعٍ وبصير
ولعلي أتيتكم بعظيم سوف يبقى على تراخي الدهور

(١) استعملنا (ما) بدلا من (مَن) على طريقة المتنبي في استعمال أداة غير الفاعل للتعظيم . قال المتنبي :
يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ؟ ما ابتغى جَلَّ أن يسمى

- ٦٥ -

أنصت القوم حين أقبل انسان عظيم بشكله وصفاته

في خطاه ، فكر يسير ، وفي عينيه نور كالفجر في لمحاته

فمضى رازن الخطا يتمشى   بهدوءٍ يلوح في خطواته

وتأنّى بسيره حين وافى   سيد الحفل ، عاقلاً ، في أناته

قال : يا سيدي أتسمح أن أُنشد شعراً جودتُ من أبياته

هو شعر نظمته فيك يزري   بقريض الفحول أو آياته

فاستمع سيدي ، كلاماً شهياً   وغناءً كالعطر في زهراته

ورنا سيد المكان اليه   قال : أنشد شعر الزمان ، وهاته

انني مولعٌ بشعرك فابدأ   بنشيد كالسحر في نبراته

وقل الشعر ، يَسبق الشعر حتى   يقصر القائلون عن خطراته

- ٦٦ -

وانتحى الشاعر الكبير يغني   من أناشيده كلاماً عجيبا

فيه روح ، وفيه معنى كبير   يصف الكون حين يجلو الغيوبا

حدّث الناس عن حياة بني الانسان فارتاعت القلوب وجيبا

ورأى السامعون قولاً جديداً   علم السامعين رأياً غريبا

كان هذا القريض(١) قبل أبي الطيب لفظاً منغماً محبوبا

وغناءً يلذّه السمع أحياناً ولكنه يُملّ قريبا

صور حلوةٌ ، ووشيٌ طريف   وتهاويل تستفز القلوبا

غير أن الحياة لم تك شيئاً   فيه فالشعر كان قولاً رتيبا

ثم جاء « العظيم » ينظم هذا الكون شعراً موقعاً موهوبا

وقصيداً تختال فيه المعاني   رقص الدهر حولهن طروبا

---

(١) اشارة الى وضع الشعر قبل أبي الطيب وفي عصره .

- ٦٧ -

ثم أنهى كلامه وتولّى خارجاً كالحسام يهتز كبرا
لم يُعر طرفه لمن كان في المجلس بل سار مائلاً مشمخرا
وتنادى الجلوس يسأل كل تربه هل أصاخ يسمع شعرا
وغدا القوم بين هرج ومرج لا يبينون في الأحاديث فكرا
بين واشٍ وحاسدٍ وعذولٍ وعدوٍ يكاد ينشق قهرا
ورأى الفارس الأمير الذي قد كان منهم فمال يضحك سرا
قال ماذا رأيتم ؟ أسمعتم ؟ أم ذهلتم ، فما تطيقون ذكرا
أشربتم خمر الدنان فمالت بقلوب منكم ترنح سُكرا
أم تذوقتم الرحيق المصفى نغماً طيباً ووردا وعطرا
هكذا الشعر ، أيها القوم لحنٌ أريحي يكاد ينطق سحرا

- ٦٨ -

وبدا الهمس لا يبين وراح القوم في غمرة من الأفكار
ما عساه يقول كل حسودٍ قلبه بات طعمةً للنار
انه الشعر ليس ينكر منه ما به من روائع الآثار
غير أن الحساد ليس يراعون حقوق الموفقين الكبار
وفؤاد الحساد أقسى من الصخر على كل نابغ جبار
كل مدحٍ يؤذيهم ، كل مجدٍ هو جرح في الحاسد الغدار
ومضى القوم لا يحيرون قولاً غير همس الاعجاب والاكبار
واستعادوا القصيد يلقون فيه كل بيتٍ كرنة الأوتار
حفظوا بعضه على الرغم منهم فهو في الصدر خالد التذكار
غيرة حركت خفيَّ أذاهم فانتووا خطةً لأخذ الثار

- ٦٩ -

شعر الشاعر العظيم بما يضمر حسّاده من الأحقاد
مضى في تشاؤم ليس يدري أيقضي حياته في جهاد
ما له لا يرى محباً شفيقاً معجباً ، نائياً عن الانتقاد
ماله كلما أتى بلداً لاقى عدواً ، أو مغرقاً في الفساد
فكأن الحياة سجن رهيب وكأن الزمان صنع الأعادي
والأماني كأنها نافرات خشية من تكاثر الحساد
وأوى للمنام وهو بعيد[1] عن عيون تذوق طعم السهاد
ورأى في الحياة قصة هم تنتهي للعذاب أو للنفاد
والسرور العصيّ فيها قصيّ عن حياة مفروشة بالقتاد
خاب من أمل الحياة بدنيا صغرت عن هناء كل فؤاد

- ٧٠ -

وسرت في الصباح أقوال ناس وجدوا في قريضه كل عيب
واعدّوا له الحجاج وراحوا ينشرون التجريح في كل صوب
ذاك يغزو مع النحاة ، وهذا في القوافي ، يخوض ساحة حرب
ورجال اللغات ثاروا عليه وأثاروا غبار شتم وثلب
والرواة الكبار باتوا دعاة لخصوم « العظيم » في كل درب
جعلوا كل شعره سرقات من قصيد سرى بشرق وغرب
وأتته الأخبار تغمز قلباً خافقاً بات في عذاب وكرب
وهو في بيته يزمجر حقداً ويثير الاعجاب في كل قلب
حبّه الناس واستراحوا اليه يشربون الزلال أطيب شرب
وأناخوا الى مكان شهيّ فيه شعر كالحسن يغري ويصبي

---

(١) أي النوم بعيد عن العيون الساهرة .

- ٧١ -

جاء في الصبح للأمير بشكوى أخـذت مسمع الأمير وعقله
قال : اني لشـاعر يعشـق المجد ولا يعشق الهراء وقولـه
وبجنبي قلب يحن الى المجد ويرجو من الحوادث نيلـه
وبكفيَّ صـارم يخدم الشـعر ليعلي من شـأنه ويجلـه
لست كالشاعر الذي يسأل الرفد ويلقى مع المدائح ذلـه
فيهين القريض في طاعة المـال ويشـقى مهانةً ومذلَّـه
ويذيق الفؤاد كل صغـار هو في النفس والجوانح علَّه
قـد رفعت القريض شأناً وأعليت من الشعر شـأوه ومحلَّه
فأقلني من العثـار وابعـد معشراً كالذباب يقصد قتله[1]
سـيغني لك الزمان نشـيداً ليس يدري الزمان في الشعر مثلـه

- ٧٢ -

أنا أرجو من الأمير سـراحاً قبل أن تعظم الشرور وتكبر
انني ابذر الشـقاق فما تسـلم أرض مما أبث وابـذر
هو حظي ولست أطمع تغيراً لحظٍ على العـذاب مقـدَّر
كل أرض حللتها فهي أرض للعداوات والفساد المـدبَّر
يمرض النـاس ما أقول وان كنت حبيباً ، عـلى القلوب مؤمَّر
ويحب الأنـام قولي ولـكن مقـامي بين الخـلائق مُنكر
فارض عني ولا تدعني مجالاً لسباب ، من طغمةٍ بي تغـدر
أنا بين الأنام شخص غريب وعجيب ، ان العجيب مكفَّر
فعسى أن اريح نفسي من الغم وان كنت بالقطيعـة أشـعر
علم الله قد عـرفت أميراً لا ترى الحادثات أعلى وأكبر

---

(١) أي قتل الشعر

٧٣

ويقولون : قد لحنتُ ، وهل يلحن طير السماء حين يغني
أو يقولون أخطأ القول في الشعر ومن أين يعرف الخطء فني
ويقولون قد تقعَّر في اللفظ ولفظي در بصدرٍ لجين ...
ويقولون قد أتى بغريب من كلامٍ جهمٍ على كل اذن
ويقولون غامض قد أتانا بغموض التعقيد في كل ذهن
ـــذبوا ، انني أقول كلاماً عبقري الأداء في كل لحن
مطرب أُعجب الرواة بأشعارٍ ترامت كالوحي في كل ركن
يسبق الفكر[1] في التقاط المعاني ويجوب الدنيا على متن ظن
يترك اللمح خلفه قاصر الخطو ويمضي كالخاطر المطمئن
فاعف عني اذا سألت سراحاً من عقالٍ ، وبالسراح أعني

٧٤

غير أن الأمير أعرض بسّاماً ، وأوأما اليه أن يستريحا
قال : اِهدأ ، ولا تبالغ بما لاقيت ، فالعيش ما يزال فسيحا
خلِّ عنك الأوهام واترك تهاويل جدالٍ قد بتن أمراً قبيحا
أنت أولى بأن تظل بقربي من رجال لم ألق فيهم فصيحا
حفظوا حاضر الكلام وغابت عنهم متعةٌ من الغيب توحى
ورووا شعر من مضوا ثم عادوا يسألون الصحراء لفظاً صحيحا
أين منهم قصائد رحت ترويها تعيد الصبا وتشفي الجروحا
أين شعر اذا طلعت به أطربت قلباً من العذاب طليحا[2]
لا تعرهم شأناً بل انظر اليهم نظرة الصقر حين يعلو الريحا
انهم كالسخال حين يراها أسد يملأ الوهاد جموحا

---

(١) اي الوعي • (٢) الطليح ، المتعب •

٧٥

أيُّ ~~م~~ تخشاه ، أم أي نقـد — بعدما قلت من قصيدٍ عريق
قد علت الأفهام ، رأياً وشـعراً — وغمرت الدنيا بفهـم عميق
وتركت الرؤى تشير الى النـاس — بلفظ كالنبع صـافٍ رقيـق
كل علمٍ ، لا يعدل الشعر عندي — في اتسـاقٍ ومتعـةٍ وبريق
فكرة الشعر تقطـع الأرض لمحاً — فهي بنت الخيـال والتحليق
أنت أعـلى منهم ، فلا تخش شيئاً — وارم بالشعر كالقضاء المحيق
ودع الحاسدين في مارج الغيظ — ينـادون من مكان سـحيق
وأدِرْ عنهم سماعك واتـرك — كل حلقٍ منهم يغص بريق
سيموتون ، كلهم ، بعد حين — وستبقى في الدهر كالعيّوق (١)
حكمة الدهر أن يظـل أخو الشعر — رفيـع الأضواء مثـل الشروق

٧٦

جُمع الناس عند سيد حمـدان — صباحاً والجمع يصغي لشـاعر
ومضى الشاعر العظيـم يغني — من أناشيده الغنـاء الثـائر
قال : اني أنا الذي نظـر — الأعمى الى شعري العريق المشاعر (٢)
وتغنى الزمان شـعري ، وقـد — ردّد نظمي دهر قديم المآثـر
فانبرى جالس" هنـاك ، وقد ثار — حماساً ، والحقـد في الوجـه ظاهر
قال : أنت الفتى الدعيُّ ألا — تسكت عن دعوة ، وأنت الصـاغر
شـعرك الغثُّ قد أساء الى النـاس — ، وما زلت في العنـاد تكابـر
وأنا ابن (لخالويه)(٣) وقـد — تعلم علمي بالشـعر في كل سـامر
قد حفظت القريض ، والنحو حتى — ليس لي في المجال قِرن ينـاظر
فأقلّ الدعوى ، وعدْ لحديث — الفضل ، فالشعر ليس ملـكاً لتـاجر

---

(١) نجم في السماء احمر مضيء في طرف المجرة الايمن يتلو الثريا لا يتقدمها . (٢) اشارة الى بيت الشاعر المعروف بهذا المعنى . (٣) النحوي المعروف .

٧٧

خيَّم الصمتُ ساعةً وفمُ الشاعر كالصخر لا يكاد يجيبُ
ورآه الأمير ، فأربد لوناً وعلا وجهه سهومٌ غريب
قال : يا (خالويه) أنت تعدَّيت حدود الآداب ، وهو أديب
قد رأى فيك كبرةً ، ورأى شيخاً أحاديثه ، هراءٌ عجيب
أين منك الوقار ، قد ذهب الحقد بعلمٍ يكاد عنك يغيب
فتمهل فلست تكر شعراً يعجب المجد والعلا ويطيب
انه الشمس تملأ الأرض نوراً انه البرق ضوءه مشبوب
وانتحى الشاعر الكبير يروض القول لحناً كأنه العندليب :
يا ابن حمدان ، انما الحقد نارٌ تمنع الحاقدين من أن يثوبوا
فاترك الحاقد الذي خالف الحقَّ ولا تبتئس ، فأني مجيب

٧٨

أنت يا (خالويه) تعرف في النحو ، وهذي بضاعةٌ مزجاة
أين هذا ، من شعر فنٍّ عظيم رددته الأقطار والفلوات
أين هذا من عبقريٍّ كلامٍ أنشدته في الخافقين الحُداة
دعك من عقدة النحاة بعيداً أيأس العالمين عندي النحاة
همُّهم لا يزول عنهم ، وهمُّ الناس ، ظلٌّ تزيله الساعات
ورجال القريض ، يا صاحب النحو ، رجال كأنهم زهرات
ينفحون العطور في الجو ، فالجو سماءٌ أجوازها عبقات
نحن قوم نهدي الحياة غناءً ، فشتانٍ : صنعة وهبات
نحن سر في خاطر الكون عشنا لحظات كأنها سنوات
لا تقارن ما بين نحوك والشعر ، فشتانٍ : صنعته وهبات

٧٩

لم يكـد ينتهـي كلام أبي الطيب حتى ثار الجدال وعمّا
أخذ « الخالويه »[١] من كُمّه المفتاح ، يرمي به ويهجم هجما[٢]
فأصاب المفتاح من جبهة الشاعر جُرحاً فسال كالماء دمّا[٣]
وأبو الطيب العظيم ، وقورٌ ليس يشكو شجاً ولم يشكُ ظلما
ومضى سائراً عن المجلس الشؤم وقد أدرك المجالس شؤما
وأتاه القريض يحمل سيلاً من عتاب لم يشف في الصدر غمّا
كل بيتٍ كأنه ثورة الدنيا تزيد الأيام ثلباً وشتما
لم يُعر باله الى عالم النحو ولكنه رمى الأمير فأصمى
قال : اني لقيت أمراً عجيباً زادني للحياة كرهاً ورغما[٤]
نالني بالاساءة اليوم فَدْمٌ كيف يرعى الأمير بالعفو ، فَدما

٨٠

أيهذا الأمير ، قد خاب ظني بزماني ، واليوم خاب بقلبي
ما عرفت الخذلان الا بيوم خذلتني فيه عواطف صحبي
أيروم الزمان ذلي وقهري خاب فأل الزمان بالمتنبي
أنا أعلى من الزمان وأسما فاستمع يا أمير حكمة لُبّي
ان يوماً لقيت فيه ابن حمدان ليوم قد كان آخر حبي
شجّني ، تافه الحياة ، لئيم لا يداني من التفاهة كعبي
فترفعت عن لقاء صغيرٍ ليس أهلا اِلا لصفعٍ وضرب
اِن جور الزمان علّم هذا النذل أن يرمي القريض بحرب
هو كلب ، لا أستطيع له نعتاً ولكنني أُقرُّ بذنبي
أنت جرأته فعضّ ومثلي لا يبالي في الدهر عضة كلب[٥]

---

(١) استعملنا تعريف اسم ابن خالويه تجوزا للضرورة .
(٢) الهجم مصدر هجم : وهجم فلانا : طرده . (٣) دم لغة في الدم ، ودم الشيء : شجه وضربه . (٤) الرغم : الكره . (٥) استعملنا طريقة المتنبي في الحقد والشتم .

٨١

سوف أمضي ، فلن أعيش بـدار خانت العهد ، واستباحت مقـامي
أيكون الهوان منـك نصيبي بعـد حبي وعثرتي ووئامي
أنا أحببت فيـك شهماً أميراً ملأ القلب بالرجاء السـامي
فارس يحفظ الحقوق ، ونـدبٌ هو للعرب والعروبة حـامي
كان شـعري حَلْياً لملكك حتى لقي الـذل في ديار الشام
كان جـزءاً من الحياة بدنيا زغردت حين رددت أنغامي
وفؤادي ، ما زال منـك ، فؤادي موطن الود والهوى والغـرام
لا يداجي اذا أحب وقد يصبح هذا الاخلاص عيب الـكرام
وبما قيل فيه : قلب سـليمٌ ربما كان عرضـةً[1] للمـلام
غـير أني أرضى بذاك ولا أنكر أني ضـحية الأوهـام

٨٢

أنا أمضي غـداً الى حيث لا أدري وحسبي أني سأمضي كـريما
في يميني كـرامتي ، لم تمزق ومقـامي يظـل شيئاً عظيما
وقريضي يسـير كالجيش قُدّامي فيجتاح عـالماً وتخـوما
وحديثي يمضي أمامي كالسيل فيحتـلُّ أنفسـاً وجسوماً
وكأني اذا تنقلت في الأقطـار رعـد يكسو البـلاد هزيما
لست أخشى موتاً ، فقد حفظ التاريخ ذكري في صـدره مرسوما
خالـد في الزمان ، كأسـمي في الشعر ، خلـوداً موقّعـاً منغوما
سوف أمضي، وسوف يغدو خصومي عبثاً في يـد الليـالي هشيما
أنا أمشي غداً ، ولكن عتبي يترك الدهر من عتابي ملوما
إن همي مثلي ، عظيـم ، ويأسي خالـد يملأ الزمان همومـا

---

(١) استعملنا عرضه بمعنى ، معرضـا تجوزا مع ان معناهـا القاموسي : القوي والعرضة أيضا : الاعتراض ·

٨٣

عش مع النحو ما تشاء من العمر ودع عالم القريض بعيـــدا
أيُّ نحوٍ يبقى اذا ذهب الشـعر وأمسى خلف الزمان شريدا
كل نحو لولا القريض ، هبــاءٌ فهو الظل ، ليس يغني وحيــدا
انه آلــةٌ ، وفي الشعر إلهامٌ يزيد القريض لطفاً وجـودا
أين من يقرن الجماد بوحيٍ عبقري يولي الحيــاة خلودا
أيهــذا الأمير عفــوك إني لم أرد أن أطيل أو أن أزيــدا
انني شاعر أقــول بقلبي فأغني الأســى نشيداً نشـيدا
أرني ما لقيت من خيبة المسعى وباتت دنيــاي عبئاً كئــودا
فوداعاً حتى يحــين لقــاءٌ بيننا يجعــل اللقــاء جديدا
في غـدٍ رحلتي عن البلد المحبوب فاذكـــر رجــاءنا الموءودا

٨٤

وأفاقت على فراقٍ حــزين « حلب » تذرع الدروب وتســأل
أين ولّى ذاك الذي ملأ الأسماع شـعراً كأنه اللحن يرسـل
أين من أنشد الحياة قصيداً عبقري النسيج ، غـير مهلهــل
كيف مرت حيــاته ، كيف ولّى قبـل أن ترتوي ، وكيف تحمّل
همسة طافت الديار صــباحاً وســؤال على الشفاه تنقّـل
وكلام يســير من كل ثغرٍ معجل تارة وقــــد يتمهّل
غـاب عن مشرق الحياة نبي وحيهُ مشـرق البيـان مفصّل
حفظتــه الأفهـام حتى تغنّت بكلام يسيل فناً وينهــل(١)
نغمة أحيت الضمائر بالفــن فقامت تعبُ منهـــا وتنهــل
ذهبت نعمة القصــيد وكانت حلوة كالصبّا ، بهــا نتعلل

---

(١) انهل : انسكب .

٨٥

وانطوى ذكر شاعر ملأ الدنيا وغابت أصداؤه الرنانه
عرف الناس أنه لقى الظلم فولّى بمهجة أسوانه
والأمير ، الأمير ، قد كان عوناً لزمانٍ رمى القصيد وخانه
حرّك الحاسدين حتى تضاغوا[١] ينهشون القريحة الفنّانه
انه العيب يا ابن حمدان فاذكر ظلم شخصٍ لقد جهلت مكانه[٢]
وسيروي التاريخ أن ابن حمدان أمير خان القريض وشانه
وأعان الحسود جهلاً فكان الظلم عاراً في ملك من قداعانه
يا ابن حمدان أنت ضيعت مجداً هو أعلى من الزمان مكانه
ما الذي قد جنيت حتى تركت الشعر ينعي لربه أوزانه
يا ابن حمدان فرحة قد تولت أنت ضيعتها فراحت مهانه

٨٦

سمع الناس أن شاعرهم أمسى بعيداً مشرداً في البلاد
أين يمضي وليس يدري ، وقد مرّ سريعاً كالريح في بطن وادِ
قد أحبّ الجنوب فارتدّ عجلان سريعاً كالبرق فوق جواد
أين ؟ لا أين ؟ انه عاش وهذا السؤال ملءُ الفؤاد[٣]
لم يجد من يجيب الا صدىً يفري هواه فري السيوف الحداد
انه في الجحيم من فكره الهاجس لا يهتدي لسبل الرشاد
ليس الا كافور يقصد في مصر فعند الاستاذ نيل المراد
غير أن الاستاذ عبدٌ وهل يصلح عبد للشعر والانشاد
أيكون الخصيُّ[٤] ندّ ابن حمدان وذاك البياض ترب السواد
فليكن ، انه مليك عصاميُّ الأماني موفق في الجهاد

(١) ضغا ضغواً وضغاءً : صاح · (٢) نلح في القصة على ان الحجاب كان مرفوعا بين المتنبي وسيف الدولة · (٣) أي عاش يسأل كل حياته : اين يذهب ؟ (٤) تعبير استعمله المتنبي ·

٨٧

يا لهـا رحلة بغير رجاء يا له موعداً عصيّ اللقاء
يا لها مهجـةً تـروغ من الضيم وتأبى الهوان كل اباء
عندها كل همةٍ ، غير أن الحظ عنها في معزلٍ جد ناء
تطلب الملك ، وهو عنها بعيد مثل ما بين أرضنا والسماء
فالى مَ الشرود في كل فجٍّ والى مَ الضياع في البيداء
أأرى الملك أم أظلُّ خبيئاً خلف شعري وشهرتي وغنائي
فاذا بحت بالمراد توارى الناس عني ببسمة استهزاء
واذا ما أشرت في الشعر للملك تناءى الممدوح عن آرائي
فكأني خلقت للشعر وحدي وكأني المختار في الشعراء
ان همي كالبحر يطغى فألقى من كفاح الأمواج كل عناء(١)

٨٨

ليت شعري هل أبلغ القصد أم أقبع في عزلتي صريع الرجاء
خلقت همتي لنيل المعالي ولمجدٍ كالشمس عالي الضياء
أنا خير من الملوك وفيهم طغمة ليس تستحق رضائي
كل ملكٍ كأنه لعبة الطفل ، سخيف الأفكار والآراء
يتنزّى على السرير صغير الرأس في خفةٍ وفي خيلاء
فاذا ما مدحته راح يهذي فرحاً بالمديح والاطراء
واذا ما هجوته ثار كالطفل وغارت عيناه خلف البكاء
فكأني مروّض أتسلى بالألاعيب والحديث الهُراء
وملوك الأيام أحوج للذم وأنأى عن مدحة وثناء
ولعلي أصيب رأس عدوي بحسامٍ أصوغه من هجائي(٢)

---

(١) اشارة الى طلبه الملك اشارة وصراحة .

(٢) اشارة الى رأي المتنبي بملوك عصره .

٨٩

وأتى « الرملة » التي مرّ فيها سائراً في طريقه نحو مصر
فرأى عالماً جديداً وعيشاً مطمئناً ، وهدأة بعد سير
ورأى موطناً شجاه ملوك لم يجد فيهم مكاناً لفخر
كلهم تافه المكانة أولى باحتقار من الزمان وسخر
وبلاد قد ضيعتها شعوبٌ فتشظت ما بين قُطر وقُطر
كل قزمٍ مؤمّرٌ في مكانٍ ضائع القدر بين سكر وخمر
ما لهم في الحياة همٌّ سوى الكسب وجمع الأرباح من كل ثغر
وبقاءٌ كأنه النوم لا سعيٌ لشيء ولا احتشاد لأمر
ويح أرضٍ ملوكها لا يحسون بلوم من الحياة وقهر
نصبتهم سخافة الدهر أملاكاً وكانوا اولى ببؤسٍ وفقر

٩٠

وصل الرملة الغداة رسولٌ قادم من بلاد وادي النيل
قال : أين الفحل الذي ملأ الأرجاء في شعره العديم المثيل
انني موفد اليه فقد يحتاج عوناً على المسير الطويل
شاعر العرب حقّه أن يسير الناس في ظلّه المديد الظليل
انه صورة العروبة لفظاً انه نغمة البيان الأصيل
فامض يا سيد الكلام الى سيد مصر الموفق المأمول
انه سيد الملوك وتاجٌ فوق رأس التاريخ جدٌ جليل
انه يكبر القريض ويرعى دولة الشعر بالعطاء الجزيل
ان هذا الاستاذ ، أقصد كافوراً ، لشخص ناءٍ عن التدجيل
ليس كالمالكين ممن عرفت الأمس بل عالمٌ بكل دخيل

٩١

وغدا في الصباح يمشي مع المصري مشى المفكر المحزون
ما لهذا المصير يأخذ بي قسراً كأني بالمجد غير قمين
كل يومٍ في بلدةٍ ، فكأني قطرةٌ في عباب دهرٍ خئون
ومعي مقصد ، تضيق به الدنيا ويحيا في الصدر بين الظنون
لم يحققه لي الزمان وهل آمل تحقيقه بدهرٍ حرون
ما علينا ، وسوف أنظر في مصر عسى ينقضي زمان الشجون
في ضفاف الوادي مراحٌ لشعري وبقرب الاهرام مهوى عيوني
ولعلي احيي الرجاء وأمشي في سبيل العلاء نحو المعين
انني أنشد الخلود بملكٍ يتحدى الأهرام بنت القرون
مطلبي كالخيال ، لكن قلبي حائر بين مطلبي والجنون

٩٢

هذه مصر ، هذه جنة الدنيا وملقى عجائب الأيام
قد أتاني نسيمها يحمل العطر ويهمي بالمطلب البسّام
وعرفت الرجاء حين تراءت حاليات السهول والآطام
نهر دافق ، وسهل خصيب أخضر رفّ بالجميم[1] النامي
فكأني لديه أمرح طفلاً خالي النفس من أسىً وسقام
وعلى النهر قد تراءت قصور عاليات تفيض بالأنغام
رقصت خلفها النفوس وحارت بين كأسٍ وخمرةٍ ومدام
وتجلى أهرام مصر وراء النهر سداً يلوح خلف غمام
يحجب الشمس ، فالسهول ظلالٌ ناديات بالعطر والأنسام
بلد تسكن النفوس بواديه وتشفى من حرقه وضرام

(١) الجميم : النبات الكثيف ٠

٩٣

يا لجسمي من السفار ، ويا للروح من مطلبٍ بعيدٍ عسير
هزل الجسم من جوىً ، وغدت نفسي سكرى من دهري السنّير
كلما رمت مقصداً ضحك الدهر بسخرٍ مني ومن تفكيري
فكأني عدوّه ، أو كأني موثق عند حاقد موتور
كيف أحيا والقصد مني بعيدٌ ورجائي في كفة المقدور
وأرى كل تائهٍ يبلغ الملك بعقل مضلّلٍ مغرور
أسعفته الأقدار ، بالملك والمجد وما يستحق غير الصفير
انه هزأة الحياة ، وشكلٌ من شذوذ الحياة في التقدير
انه لعبةَ بكفِ زمانٍ ضاحك السنّ ضحكة الشرّير
وأنا ما أزال أبحثَ عن قصدي وراء الظلام والديجور

٩٤

أنا أمشي والحظ يمشي ، ولكن كلينا ، يسير ضد الآخر
سرت غرباً ، وسار شرقاً كأنا في عداءٍ بين الجوانح ثائر
عمي أبلغ الرجاء وحظي مرهق الخطو ، واهن العزم خائر
كاد يأسي يقضي عليّ فيطوي من سجل الحياة همة شاعر
وحياتي الصحراء يلهث فيها كل ساعٍ يسير خلف المقادر
ضاع فيها ، وغاب عنه هواه فهو يمشي الى السراب الغادر
يا لها الله عيشة أنهكتني وغزت مهجتي بشتى الخواطر
كلما مرّ خاطر أزعجتني زفرة تحرق المنى والمشاعر
كيف أمشي والدرب بات بعيداً لا يحس الهناء فيه مسافر
لم يذق مثل ما لقيت فؤادٌ ففؤادي هو الرجاء العاثر(١)

---

(١) قال المتنبي :
اهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه واطارده

٩٥

كيف أمضي ، ولست أعرف شيئاً　　عن حياة يحار فيها الدليلُ
قد لقيت الملوك حتى شجتني　　عثرات يموت منها العليل
كم ظننت الفلاح قرب مليكٍ　　خلته الأريحي ، وهو الذليل
انه صورة الرقاعة في الدنيا　　وشكل مشوَّهٌ مرذول
أين مني ذاك الأمير الذي يفهم　　رأيي والرأي منه جميل
أين ملك ، يحوي الذكاء فيرعى　　أملاً في الفؤاد ليس يزول
أفكل الأنام عندي غبيٌ　　أو سخيف أو جاهل أو بخيل
إنّ « كافور » عالمٌ مستقلٌ　　شأنه غامض الصفات جليل
ليس سهلاً ما عنده ، انه يعلم　　أمري وأمره مجهول
أنا أخشى لقاءه ، فلقاء　　الأذكياء الطغاة عبءٌ ثقيل

٩٦

كان عبداً ، وكان خادم قومٍ　　فدعاه ذكاؤه للسياده
فغدا سيد البلاد ولم يمنعه　　لون ، ولم تؤخره عاده
عبقريٌ قد هذبته الليالي　　وأهابت به ، فنال مراده
درس العلم والسياسة حتى　　بات في مصر سيداً للساده
وهو رغم الأحداث يحكم أرضاً　　كان فيها عبداً ، فأمست بلاده
إن تاريخه يعلمنا العقل ، وأنّ　　الحياة صنع الاراده
لا كذاك الذي أتته الزعامات　　انتقالا أو لقمةً مستعاده
أنا في شعري العظيم عصاميٌ　　أحب الذكاء حبّ العباده
وأرى الأذكياء أعلى بني الانسان　　قدراً وحكمة وشهاده
وسألقى في مصر ، ملكاً كبيراً　　شغل الملكُ عقلهُ وفؤاده

٩٧

يا أخا مصر ، هل سمعت بذكري عند كافور ، هل يحب قصيدي ؟
هل يحب الأشعار ، أم هو ملكٌ مثل كل الملوك ، إلف جنود
أتراه يهوى النشيد فأغدو سيد القول في الزمان الجديد
أتراه يريد مني مدحاً أم تراه يمجّ كل نشيد
يا أخا مصر ، هل سمعت برأي قيل عن زورتي له ووجودي
وأجاب المصريّ يسرع بالقول ويروي قول المليك الرشيد
قال : إن الأستاذ أعرف بالشعر وأدرى بكل رأي سديد
إنه عالِمٌ تذوّق أشتاتاً من الشعر والغناء الفريد
واذا ما سمعت منه حديثاً خلته الشعر رائع الترديد
سوف تلقاه عن قريب فتلقى واحد العلم بين بيض وسود

٩٨

كان ربُّ البيان يمشي وئيداً نحو أرضٍ يحار فيها الخيال
حجبتها عن السعاة سياسات فغابت وراءها الآمال
هي أرض التاريخ ، عاش عليها عالَمٌ ساده الهوى والجمال
وأساطير من علومٍ وسحرٍ وتهاويل خطّها مثّال
والكتابات خالدات على الدهر حسان ، وما لهن مثال
مرّ في باله القصيد فواتته قوافٍ يسخو بهنّ البال
سوف يلقي على الأمير مديحاً فيه للشعر والنبوغ مجال
يسبق القائلين فناً فما تفضل للحاسدين فيه مقال
وهو الشاعر الذي رفع الشعر وسارت بشعره الأمثال
إنها مصر ، درة الأرض فادخل أرضها فهي للقريض مآل

٩٩

كان كافور أسود اللون ، ينهل سواداً ، كقطعة من ظلام
رائع المشفرين ، منتصب القامة ، يبدو عليه حسن القوام
أهرت الشدق ، أبيض الأسنان وهو كالطفل دائم الابتسام
هائل الرأس لو تراه حسبت الرأس تلاً يلوح في آكام
وعلى وجهه بقايا جراح من بقايا السنين والأيام
وبدا جلده سميكاً فما يقطع في جلده حديد الحسام
وبرجليه قد تراءت شقوق باضعات الآثار في الأقدام
لو تراه عجبت كيف غدا ملكاً عظيم الاحجام والاقدام
غير أن الذكاء مجد فما يعنو لحسن أو لمحة أو وسام[1]
عالم الشكل ، غيره عالم الفهم ، فمرحى لعالم الأفهام

١٠٠

وصل الشاعر المدل بشعر سار في الأرض كالضياء الساحر
سبقته الى الكنانة أنغام حسان قد رددتها المشاعر
كان شعراً كأنه رُقية الجن تجوب البلاد جوب المسافر
دخل القصر شامخ الأنف فيه جفوة الفارس المدل المغامر
كان كافور أعرف الناس بالشاعر نفساً منذ الشباب الباكر
كان يدري بأنه يطلب الملك ولا يبتغي عُلالة شاعر
كان يدري بما يدور بفكر ناقم الرأي بالمدائح كافر
شيبته الأيام في طلب المجد وعاش الحياة اسوان ثائر
عرف السجن في الشباب وذاق الظلم طفلاً ، وغالبته المقادر
لم يوفق لما أراد وهل وفق في العيش ناظم أو ناثر

---

(١) الوسام : الجمال ، وقد وردت في شعر المتنبي مرات .

١٠١

وخلا الحاكم الأمير بأهل الرأي من صحبه وقادة جنده
قال : قد جاءنا مع الأمس شخص قد سمعتم بفنه وبمجده
انه شاعر ، ولكن نفساً فيه تسمو الى العلاء ورأده(١)
يدَّعي رتبة النبوّة حتى خشي الناس من مغبة قصده
وهو يسعى الى أريكة ملكٍ هادىءٍ يستقل فيه بعهده
لم يجئنا للمدح ، بل جاء يبغي في طلاب السلطان تحقيق وعده
سيثير البلاد شرقاً وغربا حين يرقى السماءَ طائرُ سعده
انه فتنةٌ يحركها الشعر فتبدى لنا مخاوف عنده
ليس يرضى وظيفة الشعر في العيش ولا بد أن يعيش بجدّه
فاتقوا ما يُسِرُّ من هدف الملك فأني أخشى مرارة حقده

١٠٢

أقبل الشاعر العظيم وفي عينيه همٌّ يلوح للناظرينـا
ورأى سيد البلاد وقد قام اليه مسلماً مفتونا
قال : أهلاً بالشاعر الفحل ، أهلاً بأمير البيان في العالمينا
أنا ما زلت بانتظارك حتى ملَّ شوقي طول انتظاري سنينا
ولقد جئت بعد يأسٍ فأهلاً ألف أهلاً ، فعش لدينا خدينا
سوف تحيا بأرضنا في أمانٍ راضيَ النفس لا تحس حنينا
قد أطلت التسيار يا شاعر العرب وقد عشت شاعراً مغبونا
لم تهادنك حادثات الليالي بل أثارت هماً لديك دفينا
فاهدأ الآن ، قد وصلت الى الشط بخير فانعم ، وقرَّ عيونا
إن في مصر موطناً لك حلواً أسأل الله أن يكون أمينا

---

(١) الرأد : الارتفاع ، يقال : رأد الضحى .

١٠٣

تلك دار تعيش فيها لدينا ومعاش تصيب فيه هناء
ولك القصر ان أردت كلاما أنت حرٌ تأتي صباح مساء
وقل الشعر ان أردت أو أصمت ودع القول ان وجدت غضاء
أنت ضيف على فؤادي عزيزٌ فاحي ما شئت صحبةً ووفاء
لست ابغي منك المديح ولا أفرض رأياً ترى به ايذاء
رجل الفن لا يعيش بسجن هو يحيى لكي يذوق الهواء
هو فوق النظام ، فوق القوانين ، يرى العيش لذة وغناء
هو يحيى كالطير في عالم الزهر يغني صيفاً ويبكي شتاء
فتقبل قولي ، وكن لي صديقاً وأنس هما لقيته وعناء
النهايات غاية المرء فأغنم آخر الامر نعمة وصفاء

١٠٤

شكر الشاعر الأمير وأولاه مديحاً بقلبه ولسانه
ورجا عنده الوصول الى ما كان يبغي من دهره وزمانه
ومضى في طريقه وقد ملك الهمّ حجاه وغاب في أحزانه
وأتى داره فشاهد فيها كل ما يبتغيه من سلطانه
زهرٌ ماتع ، وماء سخيٌ ونقوش كالورد في بستانه
غير أن الهموم لم تترك الشاعر في قلبه وفي وجدانه
كل ما قد رآه لم يك شيئاً فهواه ما زال في عنفوانه
وأساه على فراق ابن حمدان عنيف كالنار طيّ جنانه
ليس ينسى محبة ملكتّه ولقاء شفاه من أشجانه
خذلته الحياة في حب خل وجد الانس في بديع بيانه
فهو في سره حزين مشوقٌ ذاكر عهد وده وحنانه

١٠٥

ورنا للبعيد فأنهمرت عيناه بالدمع صافياً كالزلال

قال :

ويح الزمان كيف رماني في ديار ضاعت بها آمالي
يا ابن حمدان ، أنت أصل شقائي أنت همي في الحل والترحال
لست أنساك رغم ما كان من صدك عني ومحنتي واعتلالي
بعتني بالسماح من أجل نذل قد أثارته حفنة الانذال
وأعنت الحقير حتى رماني بكلام ينحط عن أمثالي
وتغاضيت عن وداد صديق صادق الود نادر الامثال
وتعاميت عن عداوة شذاذ صغار العقول والاعمال
خفتني فأنخدعت بالدس واللؤم وكذب الحديث والاقوال
وتركت التأريخ يسخر من ملك عظيم التأريخ والافعال

١٠٦

وأتاه عند الصباح صديق ساهم الوجه عنده ما يقول
بدأ القول بالسلام وبالصمت قليلا كأنه مشغول
ثم أوما بكفه يسأل الشاعر أمراً قد حار فيه الرسول
قال يا شاعري ، لقد سأل الاستاذ اين القصيد منك يطول
أين شعر يرجوه منك وانشاد رقيق تحار فيه العقول
طال فيه انتظاره فهو حيران يعد الايام وهي تزول
أفلا قلت بالامير قصيداً يتملاّه صاحب وعذول
كل بيت كأنه قطعة الجيش تداعت جنوده والخيول
كل بيت كأنه صرخة الفارس في حومة المجال يصول
كل بيت كأنه حكمة الدهر تعالى بيانها المعسول

١٠٧

قال : لم يأتني القصيد ، فما أصنع ، ولينتظـــر الى أن يحينا
انمـا الشعر ثـورة ونـــداءٌ يملأ الصـدر لذة وحنينـــا
أنا لابد أن أقول كـــلاما يجد الناس فيه مدحا رصينا
فرماه الرسول نظرة عين أفهمتْه ما قد يخيف العيونا
قال : ان الاستاذ قد شـــاد قصرا مشرفا رائع البنـــاء حصينـــا
فلتهنئه بالبناء فقـــد تكسب من جانب الامير المئينـــا
قال : لا تذكر المئين ، فلـــم آت لأبغي مالا وكسبا ثمينـــا
انما جئت أسأل المجد والعزة فالمجـــد لم يزل لي دينـــا
سوف آتي عند الصباح فألقي بعض شعر أزيل فيه الظنـــونا
هو عمر يمر مدحا وذمـــا فأستمع قولتي وكن لي معينا

١٠٨

وأتى في الصباح شاعرنا الضخم ، ثقيـل الخطا ، كبـير العنـــــاء
حمل الشعر والبيـــان بصدر نـــاء بالهم والاسى والشـــقاء
فتح البـــاب ، فالامـــير وراء الباب يبدو كالشـــعلة السـوداء
ظلمة أقبلـت وليـــل تراءى تحت أستار حكمة ودهـــاء
ومضى نحوه يسير أبو الطيب يختـــال في ثيـــاب الرجـــاء
رام عند الامير تهنئة تبقـــى على الدهر بدعة في الهنـــاء
ثم غنّى فصفق النـاس اعجـــابا لقـــول موقَّع الايحـــاء
قال قولا كأنه عالم يُهـــدى الى كـل ســامع للغنـــاء
(انمـا التهنـــآت للاكفـــاء ولمن يدّني من البعداء)
(وأنا منك لا يهنيء عضو بالمسرات سائر الاعضـاء)[١]

(١) مطلع قصيدة هنأ بها الشاعر كافورا في ابتناء قصره الجديد .

١٠٩

ومضى الناس يهتفون مع الشاعر حتى كأنهم لا يعونا
غير أن الامير ظل رصين الوجه يبدو مفكرا مغبونا
عرف القصد من نشيد غريب القصد اوحى الى الامير ظنونا
ليس مدحا ما قاله المتنبي ليس شكرا ما اطرب السامعينا
أفهم الناس أنه الكفء لا الشاعر والقصد كان شيئا دفينا
أين ما في المديح من كلمات تغدق الوصف والثناء الثمينا
أين ما في المديح من نغمات تدع القلب ناشيا مفتونا
ان هذا الكلام أقرب للذم وأدنى لقولة الشانئينا
أنا أدركت ما يريد ولكني سأبقي ما في الضمير كمينا
سيراني كما يريد لبيبا عالما بالقريض فهما رصينا

١١٠

وتولى الاستاذ يبسم كالذئب رأى خصمه يريد نزالا
وبدت مقلتاه تقدح نارا وتزيدان ثورة واشتعالا
ورأى الشاعر الكبير أمورا في عيون الامير تشغل بالا
عرف القصد من سكون رآه واضطراب يزيده بلبالا
وانتهى الحفل لم يعره انتباها غير شخصين أدركا ما توالى
عرف الشاعر الامير فقد كانا سواءً فيما أرادا وقالا
أضمرا غير ما يقولون فالشعر أثار الضمير والاقوالا
ومضى الشاعر الكئيب بقلب يقطر الهمَّ والجوى والملالا
مال عنه رجاؤه فهو كالطيف تولى عند الصباح ومالا
لن يرى ما يؤمل القلب في مصر فان الآمال أمست محالا

١١١

ثم مرّت على اللقـــاء ليالٍ ملأت قلب شاعر العرب حزنا
كادت الذكريات تشغل دنياه فيـذري من المحاجر مُزنـــا
لِمَ قد جاء ينشد الامـــل الميّتُ فقد زال كل ما قد تمنى
نسيته الايام حتى كأن العيش ظل يمضي وشيـــكا ويفنـــى
وأتته من جانب القصر أقوال فزادت جوانب القلـب وهنـــا
قال فيها الاستاذ قـولا غريبا ترك الشاعر الحـزين معنّى
هل سمعتم بشاعر يطلب الملك ، وأين القصيد من ذاك أينا
كل قلب مسيرٌ ، كل شخص لم يخير فيما سعى أو تمنّى
كل سعي يخـالف الفطـــرة السمحاء سعيٌ يمور كذبا ومينا
فأنصحوا الطامحين أن ينعموا الرأي فان الحياة أصعب شـأنا

١١٢

شغلت هذه الوســاوس أفكـار أمير البيـــان ليـــلا نهـارا
لم ينم ليلة اللقاء فقد كانت عيون الاســتاذ تقـــذف نارا
وأدار الامور يطلب حـــــلا أو خلاصا يهدهد الافكـــارا
وأستوى رأيه بأن يمـــدح الاستاذ مدحا موفقا مختـــارا
فلعل الامور تجري الى الخير فيغـــدو ظلامهـــا أنـــوارا
ودعا الصاحب الذي جـاء بالامس ليلقي بسمعه الاســـرارا
قال : اني سهرت بالامس حتّـى شذّ عن خاطري الكلام وجـارا
فعسى يسـمح الامير بقـولٍ فأُنيل القـــريض مني ثـأرا
ســوف أروي مناقبـــا تنفث الروح بشعر يخلـــد الاشعارا
وحديث الامير يعجب نفســي ويزيد القريض عندي اعتبارا

١١٣

بلغ القول سمع كافور فارتاح قليلا وأظهر الارتياحا
ودعا الشاعر الكبير فأبدى بسمة تملأ المكان انشراحا
قال : يا شاعر الزمان أنلني مدحة منك تكسف الأمداحا
قد شجاني ما قلت أمس وكان القول حلوا يدغدغ الارواحا
فأعدها قصيدة لا تجارى ونشيدا كالفجر حلوا صُراحا
فدنا منه شاعر العرب كي ينشد ما قال في الامير صباحا
بدأ الشعر بالمديح فكان القول عذبا والشعر ماء قراحا
ذكر الود والوفاء فألقى رأيه ، وانثنى يداوي الجراحا
وأعاد الماضي الحزين بقول يشبه الهمس تارة والصياحا
وانتهى يذكر الامير بشعر لم يكن فيه شاكرا مدّاحا

١١٤

ثم ثنّى بنفسه يمدح الشعر وينحي على الزمان بذمّ
والأمير المُثار يغضب للقول ويصغي الى الكلام بفهم
ما لهذا الافاق لا يذكر الممدوح الا بساخر القول جم
ولماذا أتى ؟ وهل جاء كي يذكر ما فيه من كمال وعلم
مثل هذا لا يُضمر الحبّ للناس ، وحقد المخذول ، يُصمي ويعمي
هو كالسهم ليس يرحم انسانا وقد يجرح الصديق بسهم
لم ينل كلّ ما أراد فولّى بغمير كالليل ضاق بنجم
يكره الناس كلّهم فهو يلقى كل من راءه[1] بنظرة لؤم
أفأرجو من الحقود مديحا أو أرجي النوال من كف فَدْم
لن يراني الا بحيث يريد الملك ، فليملأ البلاد بنظم

---

(١) راءه مثل رآه

١١٥

رجل لم يجد صديقا على الارض ، وهل ترتجى صداقة صل
انه كاذب الضمير ، لئيم الطبع لم يخل من كِذاب وختـل
فاذا ما سمعته خلت مدحـا دِيف بالهجو بين قول وقول
رجل يدّعي النبوّة لا يحجم في العيش عن خداع وقتـل
انـه يطلب الامارة والعـرش ولا يكتفـي بوعـد ومطـل
سوف أبقيه في الكنانــة لا يبرح حتى يقضي الحياة بظلي
فأريه الذكـاء أين مراميـه فيبقـى رهنـا لأمـر وذلّ
سجنه أن ينال منيّ حِرمانا ويحيا ما بين حقـد وغـلّ
لا أجازيه ، غير أني أعطيـه قليلا فلا يفـوز ببـذل
خطتي تلك لن يرى مثلها الدهر ، وهل تحلم الدهور بمثلي

١١٦

أيُّهذا المغرور جئت الى حتفك فانظر ما أنت فيـه وفكّر
أنت لو كنـت طيب النفس والقلب لنلت الذي رجوت وأكثر
لو عرفت الزمان معرفة الفضل لما عشت في جحيم تسـعَّر
عالم القول ليس يغنـي عن العقل ، فخلّ الخيال ، لا تتكبر
أنت في معزل تعيش بدنيـا تخدع الناظرين مرأى ومنظـر
أوجدتك الحياة للشعر والفن فماذا تريد من ذاك أكبـر
لا تحاول ما لا يناسب ما أنت عليه من شاعرية عبقـر
بغية الملك دونها كل شـعر وحياة الفنون كأس ومزهـر
ولأنت البعيد عن كل عقـل فأحفظنْ ما أقوله وتذكـر
سوف يقضي عليك مطمحك الصب وتذوي كالزهر لاقته صرصرَ

١١٧

بلغ الشاعر الكبير حديث شغل الفكر والجوانح همّا
طالما ظنّ بالامير اتضاعا طالما قد رآه في الحكم وهما
ما درى أنه ذكيٌّ خبيثٌ خبر الحادثات حذقا وعلما
وكذوبٍ يقول شيئا كثيرا ثم ينسى ما قاله لك لؤما
أعجز الناس بالبلاهة والفهم وهل شمت أبلها نال فهما
فيه ما يَنْقُضُ الوقائع حتى صار لغزا من الحياة ورسما
أسعفته الظروف فالدهر عبد وهو أعلى من الظروف وأسمى
ليس فيه ما يعجب الناس إلا ضحكة تملأ المسامع غمّا
وشخير كالثور أو هو أدهى وكلام كالشتم أو هو أصمى
خلقة كالظلام قد نام عنها الدهر حتى كأنه بات أعمى

١١٨

ورأى الشاعر الحزين بمصر عالماً لا يعيش إلا كئيبا
عالم خانه الزمان فلقاه عهوداً تندى أسىً، وخطوبا
يحكم الناس فيه قزمٌ دميمٌ ويسوم البلاد حكما غريبا
فأسرَّ الهروب من ساحة اليأس وأخفى مرامه والهروبا
وتجافى عن الصحاب فما يعرف خلاً ولا يوافي حبيبا
وكأن العبد الزنيم أحسَّ السرّ فارتاع حانقا مكروبا
فأحاط الضيف الكبير بأرصاد وخلّى في كل ركن رقيبا
ورأى الشاعر الحزين صنيع العبد فأزداد جفوة وقطوبا
وأعد الرماح في ظاهر البلدة والماء طيّبا مشروبا[1]
كتم السر عن جميع البرايا فهو يحيا مخبئا محجوبا

---

(١) هذا ما رواه المؤرخون ·

١١٩

وأتى في الصباح يحمل للعيد مديحا مبطنا بالمطالب
فيه شيء من الرجاء ومما أمَّلته نفس تحب الرغائب
قال : يا أيها الامير أعرني منك سمعا ، ولا تدعني خائب
كل ما أرتجيه ضيعة أرض ثم اني من بعد ذلك تائب
فلعلي أعيش عيشا كريما خاليا من مذلَّة ومصاعب
قد كرهت القريض حتى كأني حين أُنشي القريض أحمق كاذب
ليس بدعا اذا تملكت أرضا فعطاياك نبعها غير ناضب
فأقلني من القريض ودعني لحياتي فقد مللت التجارب
عيشة المدح والرجاء برتني ففؤادي يئن تحت المتاعب
أنت أدرى بما أريد فهبني ضيعة للحياة(١) يا خير واهب

١٢٠

وأحس العبد الذكيّ بشيء من هموم تذيب قلب الشاعر
ورأى قلبه فريسة أمرٍ ليس يخفى على عيون الناظر
ومشت بسمة تدور بثغر أسود الجانبين كالليل كاشر
وتبدت أسنانه لامعات خلف ليل من حالكات المشاعر
ثم أوما بكتفه وهو يبدي فرحا بالمديح كالشمس ظاهر
قال : والله سوف أبلغك القصد ، وما تبتغيه عندي حاضر
أنا لا أكذب الوعود ولكني صديق قدَّرت طيب المشاعر
فتمهَّل كيما تصيب الذي أملّت مني ولا تكن جد حائر
ان وعدي وعد الرجال وهل يكذب وعد من معجب بك قادر
عد الى بيتك المساء ، فوعد الحر مهما يطل فلابد صائر

---

(١) يقول المتنبي في مدح كافور :
اذا لم تهب لي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني ومدحك يسلب

١٢١

ومضى الشاعر الكبير بقلب ملؤه الهم والأسى والعذاب
ورأى أن وعد كافور كذب لا يباريه في الوعود كذاب
ورأى خلفه رجالا من القصر وقد لاح في الوجوه اضطراب
ومشى كالخيال يدخل بيتاً فيه للسر والضمير مثاب
بينما كان صاحب القصر يمضي في حديث يبدو به الاعجاب
قال : لن أكذب الصديق أبا الطيب ، اني أراه بي يرتاب
ضيعة ؟ انها عطاء صغير دولة ؟ قد تزينها الآداب
سوف أعطيه ما يريد ، فعند الشاعر الفذ ، تثمر الآراب
انه الشاعر الذي خلّد الملك بشعر مهذّب لا يُشاب
وغدآ يحلم الزمان بملك شاعر فيه تفخر الأعراب

١٢٢

أجلبت ضحكة من العبد حتى عجب الحاضرون كيف تبدل
أين وعد اعطاه للشاعر المُعجب فيه ، اراحَهُ فتأمَّل(١)
انه الكذب ليس يفتر عنه ملك الكذب والامير المبجل
انه ضحكة الملوك وعبدٌ يملأ الملك بالحياء فيخجل
سخر الاسود اللئيم من الشاعر حتى آذاه ما قد تحمَّل
ومضى يمطر الديار هجاء خالدا كالديار في كل محفل
صوَّر العبد صورة أُعْجِبَ الدهر بها فهو ناظر يتأمَّل
صورة العبد .. كلُّ عبدٍ يراها جازعا ، يلعن الزمان ، ويجفل
ويسب الحظ الذي هيَّأ الملك لعبد خان الحظوظ وأغفل
سيزول الملك الحقير ويبقى شاعر زيَّن الحياة وجمَّل

---

(١) اي تأمل الشاعر العطاء .

١٢٣

كان في الريف سيد مشهور   بطل فارس ، عظيم ، أمير
كان يدعى « أبا شجاع » ويدعى   فاتكا(١) فأسمه الكبير كبير
كان في أصله من الروم قد جاء   صغيراً وعاش وهو فقير
غير أن المواهب الغرّ أعلت   شأنه فأنضوى اليه الكثير
ورأى الناس أن فاتك قد امسى   زعيماً فخافه كافور
ومضى يخلق المصاعب حتى   غاب في الريف فاتك المقهور
وأحب « الفيّوم »(٢) ، فهي مكان   ليس فيه مملّك مغرور
فقضى عمره هناك وحيداً   مفرداً كل شأنه تفكير
ورماه من الهواء اعتلال(٣)   فهو في حلبة الضنى مأسور
كان فحلا بين الرجال فلو عاش   لغابت عن الديار الشرور

١٢٤

وأحب « الشجاع » شاعرنا الفحل   فوافاه سائلا كي يراه
والتقى الصاحبان في وضح الشمس(٤)   فدلت على المشوق الشفاه
ورأى فاتك بصاحبه ما كان   يصبو اليه ، مما رواه
ورأى الشاعر العظيم لدى فاتك   قلباً يكاد يبدو جواه
وشجونا كثيرة تتنزى   خلف صدرٍ يلوح فيه أساء
قال : يا شاعري ، ويا خير من أنشد   شعراً ، ثامت(٥) به الافواه
أنت أعلى من أن يضيمك دهر   أنت أسمى من ظلمه وأذاه
فأنس ما قد رأيت من عنت الدنيا   وعبداً شاركتني في لقاه
قد لقينا لديه من خيبة المسعى   عذاباً كالسم طال شجاه
فأنتظرني ، فانني سأداوي   كل داءٍ لقيته في حماه

---

(١) فاتك الرومي الملقب بالمجنون ، صديق المتنبي توفي عام ٣٥٠هـ في مصر • (٢) منطقة في مصر معروفة • (٣) اصيب بالمرض لفساد الهواء في تلك المنطقة • (٤) التقى فاتك بالشاعر في الساحة العامة بالقاهرة •
(٥) ثام : قوله مثل ثيم •

١٢٥

ودرى العبد باللقاء فثارت فيه نفس تحس كل اتقاء
ملأ الارض بالعيون فما تفلت منه ابتسامة الاعداء
عالم بالذي يمرُّ ولو كان خيالا أو نسمة من هواء
ورأى الشاعر العظيم رجالا سهروا حول بيته في العراء
همهم أن يروا حقيقة ما قالا وما كان منهما في المساء
كان يرجو من فاتك كل خير بعد هم أصابه وشقاء
فأوى للفراش ، فأستيقظ الشعر ووافاه رافلا بالثناء
شكر الفارس(١) الذي جدد العزم وأحيا في النفس كل رجاء
انه فاتك ومن حق هذا الشعر أن لا يُضيع حق الوفاء
كان مدحا يفيض صدقا وقولا فيه إعجاز سيد الشعراء

١٢٦

لم يكد ينتهي مديح أبي الطيِّب حتى أتاه نعي الصديق
مات في الليل فاتك إثر داءٍ حار فيه نطس الطبيب العريق
فجرى الدمع من عيون أبي الطيِّب حزنا على المحب الرفيق
وأنطوى يملأ الظلام بهم كسواد الظلام داجٍ عميق
خانه الدهر في « الشجاع » الذي أمَّل خيرا في عطفه المرموق
والذي كان يعشق الشعر والفن بفهم عالٍ وذوق رقيق
تلك كانت كبرى مصائب دهرٍ جاحد القلب كافرٍ زنديق
أخذ الصاحب المحبَّ وأبقى كل عبد جافي الطباع صفيق
وبكى خلَّه بكاءً طويلا وتشكى فراق إلفٍ شفيق
ضاع كل الرجاء في مصر فالعمر شقاء ، والعيش غير طليق

(١) اهدى فاتك الشاعر الف دينار في اول لقاء فمدحه الشاعر بقصيدته الشهيرة : لا خيل عندك تهديها ولا مال ٠

١٢٧

إيه يا الليل ، أين ألقى الاماني في زماني ، فقد مللت زماني
لم أعش ساعة يُسرُ بها القلب فعيشي مرارة الحرمان
أنا أسعى كمن يسير بصحراء بلا صاحب ولا معوان
وأغني شعري ، فكل غناء فاض عني رثاء عمري الفاني
كلما شاهدت عيوني صديقا مال عني أو مات قبل الأوان
كلما أملّت محبا غيوراً غاب عني في زحمة الحدثان
هكذا عشت في حياتي وحيداً بين قوم أدهى من الذؤبان
صافحتني منهم نفوس جياع وعيون كأعين الثعبان
فحياتي ما بينهم ، عيشة المخدوع ما بين معشر خوان
يتمنون ميتتي غير أني سوف أحيا بهمتي وبياني

١٢٨

لن يروني أموت حتى أميت الجزن في كل خاطر وقاد
أنا أحيا لارفع الغيظ عن قوم يعيشون عيشة الاصفاد
تحت حكم من الملوك حقير وعروش قامت على الاضطهاد
أمراءٌ ، لكنهم سُفهاءُ بلغوا المجد عن طريق الفساد
كل عبد كأنه سبّة الدهر بوجه مجلّل بالسواد
و «كويفير[١]» أصغر الناس عندي وكويفير أحقر الاوغاد
كلما رمت هجوه برمت نفسي بذكر المخادع الجلاد
خدع الناس بالنفاق وراءى لم يجد واحدا من النقاد
ليس فيه ما يقنع الناس بالفهم سوى ضحكة تميت فؤادي
ليس كافور عبقريا ذكياً انما ناسه من الاولاد[٢]

---

(١) هذا التصغير من قول المتنبي في كافور • (٢) كان هذا رأي المتنبي وخاصة في قصيدته المقصورة •

١٢٩

كل من جاور الحظوظ رآه الناس أعلى من الحقيقة قدرا
ربما كان خاليا من ذكاء ربما كان يملأ العين سحرا
فاذا ما أصاب نُجحاً تولى كل عيب فيه وخلَّد ذكرا
ولقد يصبح الغبيُ ذكياً ان تمادى في غيِّه أو تجرّا
ويعود الجبان أشجع في الارض ان سالم الحياة وفرّا
واذا ما سعى وخاب ، رآه الناس من كل خصلة قد تعرّى
فاذا الباسل الشجاع جبان يقطع العمر بادي الهم قهرا
قيمة المرء في النجاح فلا تعجب لمن نال حظه واستقرا
والذكاء الذي نحب شجاع كلما لفَّه الظلام استسرّا
فاسأل الحظ فهو يبلغك العرش اذا شاء أو ينيلك قبرا

١٣٠

واستراح الحزن العميق على فاتك في قلب شاعر البيداء
وتولته خاطرات جسامٌ لمسير عن مصر في الصحراء
وأتى العبد في الصباح بمدح كالمديح الذي مضى وثناء
كان هجوا للناس ، لم يك مدحا فمديح العبيد بعض الهجاء[1]
كان ذاك اللقاء آخر عهد عند كافور سيد اللؤماء
ومضى المدح ، لم يفد منه شيئ غير ضحك وبسمة استهزاء
وغدا الشاعر العظيم الى البيت بنفس كسيفة حرّاء
ليلة العيد تلك كانت وفي الليل مراح ومنفذ للنجاء
وأستحث الخطا ، وسار مخبّاً بين اطواء ظلمة عمياء
مر كالحلم في الظلام خفيّاً ومضى كالخيال نحو العراء

(١) يقول المتنبي في هجاء كافور :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحا له ولكنه كان هجو الورى

١٣١

حمل الماء والـرماح وزاداً كان يكفيه في المسيرة شهرا
كان كالسر في الخفاء وكالهمس بسمع الزمان ، فارق ثغـرا
نسمة" أقبلت تجـرر آمـالا جساما ، وخاطر ما اسـتقرا
وعيون من الرجـاء خـواء نديت أدمعا ويأسا وقهـرا
ما درى صاحب ، ولا علمت مصرُ بعزم قد كان في البيت سرا
ستر العزم وأسـتكان طويلا ينعم الرأي وهو يحزم أمرا
وأطال المسير حتـى تراخت حوله الخيل وهو كالليث سيرا
همة تعجب العـلا ومضـاءٌ أذهل العالمين مصرا فمصـرا
وكأن الايام نامت عن الشاعر فانسـلّ في البـلاد ومـرا
شاعر صافح النجـوم ، ولـم يقبل بما ناله ، فكافح دهـرا

١٣٢

سار عشراً من الليالي فما ملّ غُدُواً ولا استكان رحيـلا
عرف الدرب ليس يعـرفه لص ولا مارد ، وكان طـويلا
عاش فيه الخرّاب والتجأ القطّاع في الليـل يأخـذون السـبيلا
شاعر لا يخاف ، فأعجب لشعر عاش سيفا مهندا مصقـولا
لم يهب جفوة الطريق ، ولـم يحسب حسابا ، وسار سيراً مهـولا
لم يفكر في الموت ، فالمـوت قد كان مآلا مقـدرا معقـولا
ورأى العيش مدة شأنها الخوف فلولاه كان شـيئاً جميـلا
فأضرب الدهر حين يضربك الدهر ولا تخش صرفهُ المسلولا
عش عزيزا[١] مدى الحيـاة والا كنت عبئا على الحياة ثقيـلا
أنا أسعى الى البقاء فهـل أقصد نجما أو أطلب المستحيلا

---

(١) يلاحظ اننا تقيدنا بالكثير من استعمالات المتنبي كقوله :

عش عزيزا او مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنـود

١٣٣

وعرته في دربه حادثات ... كدن يذهبن بالعظيم شهيدا
خافَهُ من رآه يقتحم الصحراء ... كالسيف في البوادي فريدا
وأرادوا في الليل نهبا لما ... كان لديه فكان قِرماً عنيدا
لم يخف خائنا ولم يخش ضَبّاً ... وتحدى من سامه تهديدا
ورمى العبد(١) بالحسام فأرداه ... قتيلا تروي دماه الصعيدا
وأستتم الطريق كرّاً وفرّاً ... يقطع البيد فارسا معدودا
وأفاق الاستاذ من سكرة السهو ... وقد راح من أراد بعيدا
سأل الجند والعيون فلم يلق ... جواباً على السؤال مفيدا
كل ما جاءه أفاد بأن الشاعر ... المستنير فك القيودا
أصبح الطائر الاسير طليقا ... يملأ البيد شعره تغريدا

١٣٤

همّه أن يصير للهجو دارا ... ومحلاً للسب والتحقير
سيزول الزمان ، والشعر باق ... في ثنايا التاريخ عبر الدهور
ينشد الناس ما به من هجاء ... عبقري الايلام والتشهير
أقرب الشعر للنفوس سُباب ... ليس يخلو من روعة التصوير
وهجاء مصوِّر لصفات ... تخلق الضحك في فم المقهور
وابتسام معبِّر يرسم الكره ... على اللفظ ، صادق التعبير
ساخرٌ من عدوه بتلاوين ... حسان تعيش طيَّ الشعور
تلك سلوى لعالم كره الحظ. ... وقد سار في ركاب الصغير
وتخلى عن الرجال الى كل ... سقيم الاحساس خاوي الضمير
ما درى الدهر كيف أصبح حظ الناس ... وقفا على يدي كافور

---

(١) ديوان المتنبي : عبدالوهاب عزام (ص ٤٩٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة) .

١٣٥

وتوالت قصائد الهجو ناراً وسهاما تصيب صدر العبيد
مزّقت جلدَ أسودِ المُلك حتى زلزلت ملكه برمي سديد
فتعالى نشيجه وتهادى عزمه تحت ضربة الصنديد
وبكى الاسود الزنيم من الغيظ وقد جاد بالدموع السود
ضاع منه ذكاؤه وخبا ما فيه من لامع الشعور الفريد
وغدا يذكر الهجاء ويروي ما تلقاه من هجاء جديد
ناسيا أنه هجاءٌ لما فيه من الملك والعتو المريد
وأصاب العبد الهذاء فما يعرف غير الانشاد والترديد
هرب الطائر السجين مع العيد(١) فلم يبق بعده من عيد
واختفى الشاعر الكبير ، فجنَّ العبدُ من سخر شاعر عربيد

١٣٦

قيل للشاعر الكبير لقد جرّحت كافور فأتق الله فيه
لم يكن ذلك القصيد هجاءً بل سباب من الكلام السفيه
ومن الحق أن يكون هجاء الشعر لمحاً يحلو لكل نبيه
وحديثا يشير للعيب في المرء قريبا من رقة التنويه
لا كلاما يفجر الندم منه أو سبابا كطعنة تعميه
ومن الهجو ما يكون قصيدا يخجل الخصم منه ان يرويه
ومن الهجو نكتة تضحك الناس من الخصم ثم لا ترديه
ومن الهجو صورةٌ ترسم العيب جليَّ الالوان اذ تبديه
ضحك الشاعر الكبير ، وكان النقد ان مرَّ حوله يؤذيه
قال : لم أهج بالقصائد كافورا ولكنني بصقت بفيه

---

(١) ترك المتنبي مصر ليلة عيد الاضحى من سنة ٣٥٠هـ .

١٣٧

أتريدون أن أكلم عبداً بكـــلام مهذّب معقـــول
أنا حقّرته بشعري وشعري يجعل الهجـو سلوة للعقول
بكلام تختاره فطرة الشـــاعر رغم التجـــريح والتمثيـــل
رمت أقضي عليه حتـى يراه الناس شلواً على السرير الهزيـل
لم تروه فكيف تبدون رأيا في حقير مشـوّه مشـلول
أرأيتم لرأســه كيف يبـــدو تحت شمس ، أو تحت ظل ظليل
كرة تبعث الظـلام نهـــاراً وسواد كالليل ضافي الذيول
أم رأيتم لمشفريه استراحا فوق ثغر كالبئر غير بليـل
أم بصرتم بمنخريه وقد لاحا غرابا على تراب مهيــــل
هو أولى بكـل قـول بـذيء يوقظ الحسّ في الفؤاد العليـــل

١٣٨

ومضى الطائر الطليق وراء المجـد يجـري في زحمـــة الاقـــدار
وطوى البيد والرمال فلم يشك ملالا من عيشة في القفـــار
وأستحث الخطى يريد بـــلادا عاش فيها مع الرفاق الصغار
بين بيت ومكتب وحـديث وكتاب يغصّ بالاشـــعار
غاية السير عنده الكوفة السحراء مهد الهوى ومثوى النجـار
عندها والد عطوف وان لـم يـر منه غير الحكايا القصار
وبها أمه الرءوم وذكـــرى من حنان يعيش في التذكار
وبهـا جدّة تربّى لديهـا بين ستر من حضنها ودثار
وبها أصله الذي ضاع منه بين كتب وغربة وســـفار
سوف يلقى بعد البعاد ديارا غاب عنها أكرم بها من ديار

١٣٩

جاز بالامس «دوحة» (١) بعد سير لقي الأين فيه والأتعابا
وأتى الكوفة الصباح فكان الفجر والمهد من أمانيه قابا
كاد يبكي من فرحة بلقاء أيقظ العمر بعدما كان شابا
ورأى حين كان يمرح طفلا ورأى الدرب خاليا والقبابا
ورأى الدار بعدما عاش فيها حادث الدهر جيئة وذهابا
فمضى يسأل التراب بعين شرقت بالدموع ، حين أجابا
وتراءت له على البعد آكام قضى عندها الهوى والشبابا
وتلال كأنهن ينادين رفيق الصبا أسى وعتابا
وسماء كأنها مقلة الطفل صفاء وزرقة واضطرابا
تلك كانت مدينة العمر فالقلب مشوق يكاد يبكي انتحابا

١٤٠

علم الزائرون أن أبا الطيب قد حل بالمدينة ضيفا
فتنادوا اليه يسترقون القول والشعر منه شوقا ولهفا
واستداروا حول العظيم يؤدون سلاما ولهفة ليس تخفى
واستراحوا الى حديث رصين يسكن القلب والجوانح لطفا
وكأن الضيف الامام وكل الناس من خلفه يصلّون صفا
جَهمت وجهه الحياة كما لاح على وجهه البيان ورفا
ما له يلزم السكوت فما يفصح قولا وليس ينطق حرفا
هو يبدو رغم الحديث حزينا ويسوق الحديث كالسيل عنفا
رسمت وجهه الهموم فما يكتم جهدا وراء عينيه شفّا
وكأن الأيام قد أهرمَتْه فذوى غصنه الرطيب وجفّا

---

(١) هي دومة الجندل المعروفة على طريق الشاعر من مصر الى الكوفة.

١٤١

كانت الكـوفة الحفيَّة أمّـاً للفتى الشاعر الذي جاء أمسِ
لقيتـه بقلبها وذراعيهـا فعاش الأيام في شبه عرسِ
عالـم ذاهب وآخـر آتٍ بين هم من الحياة وأنسِ
وأبو الطيب الحزين شـرود الذهن يبدي ابتسامة بعد يأسِ
أنشد الشعر فالغناء يثير الناس شوقا الى مزيـد التحسّي
غزل ليِّن ، ومـدح طريفٌ وهجاءٌ يعيش في كل نفسِ
وكلام كأنـه نغم الطـير ولحن ما بين لفظ وهمسِ
معجز ما يقول ليس يدانيه خيال ولا يُنال بحسِ
وكأن الايام قـد علمتـه حكمة الدهر فهو أعلم نطسِ
وكأن الحيـاة بين يديـه كلمات تزين صفحة طِرسِ

١٤٢

وجرت حوله حوادث في الكوفـة تؤذي حيـاته وتضـرُّ
وأتـه رسائل من ملـوك يستضيفونـه فكـان يفـرُّ
ملَّ من صحبة الملوك ومن عيش لديهم كأنه الضيم مرُّ
وحياة الشعر التي أرمضتـه أرهقت قلبـه فليس يُسَرُّ
أيقضّي أيامـه حسـرات مادحا ، هاجيا ، فمـا يستقرُّ
أسوأ العيش عنده مـدح انسان كـذوب يغشّه ويفرُّ
التجاريب علّمته فمـا يخفى عليـه من المصـائب سـرُّ
ولقد عاد للطفولة في الكوفـة فالعمر مطلـق القيد حـرُّ
والاماني مشرقاتٌ عـذابٌ هادئاتٌ كأنّهـا لا تمـرُّ
بئس عيش كالدهر لست ترى فيه هناءً ، وهل أراحك دهر

١٤٣

سمح الشاعر الكئيب «بشيراز» وكانت جديدة، ما رآها
وأتاه منها كتاب يمنّيه بدنيا مشوقة يهواها
بلدة حلوة وعيش رخي طاب فيه الهوى وطاب مياها
وكأن الحياة فيها خيال وكأن الجمال فيها تناهى
وبها سيد يحب أمير الشعر حتى أجلّه وتباهى
«عضد الدولة»[٢] الذي رفع الشعر وغنى الاشعار حتى رواها
بطل فارس، وفهم ذكي أدرك المجد في الشباب وتاها
وروى الشاعر الذي عرف الناس بشيراز واستطاب لقاها
غير أن الذكرى أعادت اليه حادثات من الزمان اجتراها
مرّ في باله لقاء «كويفير» وآلام صحبة عاناها

١٤٤

غير أن الامير، كان بشيراز، بعيدا عن الديار غريبا
ديلمي[٣] أصاب والده الحظ فنال العرش المضاع السليبا
أعجمي اللسان لا يعرف الاعراب الا مشوّها مقلوبا
يمضغ الحرف حين يلفظ فالحرف هضيم تخاله ممصوبا
وكأن الكلام يهرب من فيه خلاصا من ظلمه وهروبا
والمعاني كأنهنّ أسارى مائلات تشكو النوى واللغوبا
كيف يروي القصيد ؟ كيف يحب الشعر ذوقاً، بل كيف صار أديبا
حكمة لا تزال تملؤني شكا وامرٌ ما انفك شيئا مريبا
هو لابد أن يكون ذكياً هو لابد أن يكون أريبا
غير أني أراه عن نفحة الشعر وعن طيب فنه محجوبا

---

(١) شيراز بلدة ومقاطعة في فارس .

(٢) عضد الدولة هو حاكم شيراز من امراء الديلم في الدولة البويهية وهو ممدوح المتنبي (٣) الديلم شعب مستقل قريب من الاكراد .

١٤٥

ومضى الشاعر الكئيب[١] يعيد الدهر ذكراً ويستعيد الـزمانا

ذكر الصاحب القديم ابن حمدان ، ولم ينس عمره ، خمـدانا

الرفيق الذي أصاب لديـه زهوة المجد والرضى والامانا

وتسامى حتى سماء من العز يغنّي العلى ويُغْني البيـانا

بقـواف كأنهن لحـون وأناشيد تسـكر الاذهانـا

وأغاني حركت ساكن النفس فثـارت على الاسـى بركـانا

أنا انشأت للزمان قريضـاً يعربيـا يخلـد الانسـانا

وملأت الدنيا بحكمـة نفس عرفت حكمة الـزمان عيـانا

نغمات تزيد حسناً مع الدهر وفن يزيدهـا إحسـانا

لا تسلني الفريض بعد ابن حمدان فقد عفت بعده الاوزانا

١٤٦

أتراني أقول شعراً ، وقد مرّ زماني وحاربتنـي الليـالي

شاب رأسي مما لقيت فلـو مرّ ببالي الصبا لفـارق بالي

ودهتني من الـزمان صروف قاصمات خلّفن رقـة حـالي

حـادثات كأنهن ملـوك أنا ضيعت عندهم كل غال

وظروف عرفت فيهـا رجالا سرقوا شعري الرصين وبالي

أمراء كأنهـم لعنـات كاشرات على جبين المعـالي

سودوا صفحةا لقريض وغالوا يسألون المديح كل سـؤال

ارغموني على النفـاق ، فنافقت ، وفي القلب مثل وقع النبـال

وأرادوا مدائحي كيفما كانت ولو أنهـا خداع الرجـال

كل هذا وهم ملوك ، ومثلي شاعر لا يجيد غير المقـال

---

(١) اتكررت في القصة هذه الاوصاف للمتنبي لان حياته كلها في رأينا تمثل الانفعال والحنق ٠

١٤٧

سكت الشاعر ا لكئيب قليـــلا بين هم من نفســـه وحنين
ذكريات الصبا أثارت لديـــه حرقـات المتيَّم المحـــزون
كان ، إن عاده تذكرُ حمدان تـــولاه عارض من جنـــون(١)
قد أحب البقاء عند ابن حمدان وما زال فيـــه غير ضنين
ولقد راب حبُّه لابن حمدان دعاة السؤى وكل خئـــون
داهمته الظنون في حب أُختٍ(٢) لابن حمدان عوجلت بالمنـــون
فرثاها حبـاً لحب أخيهـــا وبكاها حزناً بدمـع العيـون
وجد المغرضون في ذاك ثغرا للخيانات والاذى والظنـون
كل شخص يحب ، غير أبي الطيِّب ، فالحب لوثـــة من فتـــون
ليس من قارع الملـوك بلاهٍ عن منـاه بقلبـه المفتـــون

١٤٨

زعم الاغبيـــاء أني محـــبٌ ليت شعري هل يصدق الاغبيـــاء
أنا أهوى ؟ معاذ فكـــري حبٌ يذهب العقل خلفه والذكـــاء
إن حبي ، حبٌ يحققه العقل ويهـــدي سـبيله الايحـــاء
إنـــه همـــة تريد عـــلاءً ، وجهـــاد وحكمةٌ ودهـــاءُ
فاذا قيل شاعر ، كل شـــعرٍ صبوة أو مجانـــة أو فتـاء
قلت : إني أذوق كل جمـالٍ وجمـال الوجود فيه غنـاء
إنه متعـــة النفـــوس وفـي المتعة فنٌ ولـــذة وهنـــاء
ليس ما يدعيه ناس صغـار همهم كأس خمرة ونساءُ
فـــدع الأغبيـــاء يهـذون بالحب فقول المضللين إفتـــراءُ
لست صخراً ، وانما أنا أهوى كلَّ ما لا يضيع فيه العناءُ

(١) المعروف تاريخيا ان المتنبى لم يخلص الحب الا لسيف الدولة .
(٢) كشف عن هذه الفكرة الاستاذ محمود محمد شاكر وقداوردها في العدد الخاص بالمتنبي من مجلة المقتطف .

١٤٩

كان في مجلس الفتى عضد الدولة ناس" أئمة" فضلاء
عنده الكاتب الذي شغل الناس بفن عنا له البلغاء
عنده « ابن العميد[١] » وهو إمام كاتب صحّ عنده الأنشاء
وابن « عباد[٢] » وهو صاحبه الفذ ، فصيح تعنو له الفصحاء
الشهير العظيم كان «أبو حيَّان»[٣] من هاب رأيه الحكماء
مجلس يعمر البلاد بعلم ومكان يؤمه العلماء
تلك دار تزينها هيبة العلم وتعلي من شأنها الآراء
وأتى الشاعر الغريب كتاب" آخر" فيه دعوة وثناء
فقضى أن يطل إطلالة الفجر وماجت بصدره أشياء
لم يكن راضيا عن السير لولا خطة" شاء أن تكون القضاء

١٥٠

عمل الحاقدون من قبل أن يصل الشاعر بين المليك والفنان
فأثاروا العداء قبل لقاء كان مهوى التاريخ والازمان
هيأوا الخلف والنفور فلما التقيا أصبحا على شنآن
بلغ الملك من كلام ابي الطيب قول" يسي للسلطان
أسرف الشاعر الكبير بهجو العجم[٤] هجواً يفوق كل بيان
ورمى « الديلم » الذين استباحوا هيبة المالكين ، بالعدوان
إنهم ديلم وليس يصير الملك الا في النسل من قحطان
عرب كلنا وما لغريب حكم شعب ينمى الى عدنان
والخلافات في قريش ، وللديلم أن يصبحوا جنود الطعان
بئس عرب" ملوكهم من خراسان ومن ديلم ومن ساسان

---

(١) هو الرئيس ابن العميد الكاتب البليغ . (٢) هو الصاحب بن عباد الكاتب وخصم المتنبي . (٣) هو ابو حيان التوحيدي الكاتب العظيم الفيلسوف . (٤) اشارة الى الحديث الشريف (الخلافة في قريش) ، أما الديلم وغيرهم فهم جنود يستعملون في الحرب .

١٥١

علم الناس في مدينة «شيراز» بأن « الجعفى » سوف يزور
وجرت بينهم أحاديث في الشعر وقامت محاورات تدور
فرح الناس بالزيارة حتى لاح في تلكم الوجوه السرور
شهرة الشاعر التي طافت الدنيا أتاهم بها الرسول البشير
حلم أن يُرى عظيم كهذا طبقَ الارض اسمه المشهور
وشهيٌّ أن تبصر الشاعر الفخم وقد لاح تاجه المضفور
سبقت رحلة العظيم أحاديث حسان كأنهنَّ العطور
وكأن الربيع أقبل يُهدي نفحاتٍ جادت بهنَّ الزهور
وكأن القصيد أقبل يمشي ويغني الربوع وهو يسير
موكب الوحى والبيان تراءى عربيا ينداح منه النور

١٥٢

وأتى الشاعر الكبير وقد مرَّ ببغداد في الطريق الطويل
وببغداد عاش بعض ليالٍ بين صحبٍ ومعشر وقبيل
غير أن الحسَّاد كانوا قريبا لم يحلّوا والكره غير ملول
نصبوا للعظيم منهم شراكاً للأذى والخداع والتضليل
ولقد كان بينهم ذو بيان كبيان النحاة غير جميل
أدبته قراءة وكتابٌ وأديب الكتاب غير أصيل
أدب الشعر دونه كل نثرٍ ليس فيه حلاوة الترتيل
أدب الشعر فطرة وغناءٌ في نظيم مروّقٍ معسول
وكلام ملونٌ وحروفٌ راقصات مع النسيم العليل
فاذا ما قرأته عشت فيه بين ماءٍ وربوة ونخيل

١٥٣

عـرف « الحاتمي »[١] أن أمير الشعر آت يسعى الى بغـداد
ولقد كان ذا محل رفيـع بين قوم من سـادة نقـاد
قرأوا الشعر والبلاغة والنحو فكانوا النجوم في كـل نـاد
ولقد كان سيداً يقصد النـاس اليه في زحمـة القصّـاد
وأراد اللقـاء بالمتنبـي في مكان من المدينة هـاد
فلعلّ الزمان يذكـر يومـا موعدا خالـداً على الآبـاء
ولعل العظيم يعجبه القـول فيرضى عن فكـره الوقّـاد
ولقد كان يأمل المـدح يوماً من أمير البيان زين البـلاد
فسـعى قادمـاً الى المتنبـي برجاء على محيـاه بـادي
وتلاقى الاثنان في هـدأة الصبح وفي نجوة من الحسّاد

١٥٤

وأحسّ « الجُعْفيّ » ما يضمر القادم من غاية وما يبتغيـه
ولقد كان يكره المـدح إلا في سبيل يراه ، أو يرتضيـه
لم يكن يستطيع فهم رجال يسـألون المديح للتنويـه
كلما جاءه أمير صغـير طلب المدح جاهداً من فيـه
أو أتاه مؤدّب سأل المدح دلالاً وراح يسـتجديه
أهو للمدح آلـة ، أم تراه آلـة للخـداع والتمويـه
إن شعراً يقوله هو أسـمى في حساب الزمان من سائليه
ليت شعري ما يُطمح الجهل بالشعر وهل في البيان ما يُغنيه
إنما المدح حليـة خصّها الدهر بعقـل مهذب يرويـه
وهو شـكر من الفـؤاد وحب لصديق أو محسن أو نبيـه

---

(١) شخصية ادبية قد ناصبت المتنبي العداء وسببت له المتاعب ٠

١٥٥

ومضى الحاتمي من مجلس الشـــعر وقد لاح حقده في جبينــــه
فنوى المكر والعداء انتقامـــاً وتراءت نيّاته في عيونــــه
جمع الحاقدين في بيته النـــائي وأملى عليهم من شـــجونه
ورمى الشاعر الكبير بقـــول ٍ غير صدق يريب في مضمونه
قال : هذا الدعيُّ زاد به الكبر على قومه وأبنــــاء دينـــه
ملأ الارض بالهجاء وباللحـــن وما زال سادراً في مجونــــه
فعلام الكبر الذي لاح فيـــه وعلام الزهو الذي في يفينه
ما رأينا له مثيلا ولم نعـــرف شبيها في كبره وجنونــــه
ما الذي غش أكثر الناس فيـــه ما الذي هال عقلهم من فنونه
إن هذا المحتال شخص غريب وغريب في ســحره و فتونــه

١٥٦

وأثار الغبار خلف أبي الطيّب حتى غابت بـــه بغـــداد
فابن «حجاج[١]» قام يهجوه شعراً ضاق عنه الرواة والنقــــاد
وأبن حجَّاج شاعر لا يبارى شأنه السب والاذى والفسادُ
ومضى الحاتمي ينشر نقـــداً هو شتم يعيى بـــه الانتقـاد
ثم أملى رسالة لم تفــــده حشوها الكذب والهوى والعناد
كل هذا والشاعر الفخم غاف ٍ غافلٌ لا تهمــه الاوغـــاد
نســمة أقبلت وريح تولت أين منها الجبال والأطـــواد
إن مثل « الجعفي » لا يحفل الشنم وهل يثقل الخضمَ ثمار[٢]
إنه منحة البيـــان نمـــاهُ خاطر مخصب العطاء جـوادُ
سيموت الكلام إلا قريضـــاً حفظته الـرواة والاحفـــاد

(١) من شعراء اليتيمه هجاء شاعر مقذع ٠ (٢) الثماد : ماء المطر يبقى تحت الرمل ٠

١٥٧

زعموه يروي ويسرق ما قال وهل تسرق المياه البحار
ورموه بالاخذ كذباً فهل تأخذ طلعاً من غيرها الازهار
ثم قالوا ، أغار حتى استباح الشعر عند الاعراب ، فهو مُعار
سرق الشعر من «حبيب[١]» ومن قول «وليد[٢]» فضاعت الاشعار
كذب « الحاتمي » إن أبا الطيّب نبعٌ في شعره ثرار ...
مقولٌ يخلق المعاني وذهن يمنح الفنَّ ، مخصب جبّار
وكأن الالهام حين يواتيه سحاب مجلجل مدرار
حِكَمٌ تخشع القلوب لها عجباً ورأيٌ كسيفه بتّار
كل قول من قبله مستعارٌ كل قول من بعده تكرار
شعره الفصل في البيان فدع قولاً رواه العداة والاغمار[٣]

١٥٨

خلّف الشاعر المسافر في بغداد ذكراً يعايش الاياما
ومضى يقصد الفتى « عضد الدولة » والقلب يشتكي الآلاما
ومشت في فؤاده نزعات أيقظت في حياته الاوهاما
آمل تارة ، وطوراً حزينٌ ليس يدري بأي أرض أقاما
أسهرته الدنيا فلم يذقِ النوم وهل ذاق عبقريٌّ مناما
ومشى في مفاوز شاسعاتٍ وبوادٍ مخيفة تترامى
أذكرته بما مضى من زمانٍ عرف الأين فيه والاقداما
ثم لاحت لعينه ربواتٌ كاسيات شقائقاً وخزامى
عندها غابت العيون بوادٍ نائم في الظلال يندى إبتساما
ذلك « الشعّب » أعجب المتنبي فتغنى بما رآه وهاما

---

(١) ابو تمام . (٢) البحتري (٣) فلان غمر ومغمَّر غير مجرب وهم اغمار وفيه غمارة وغرارة .

١٥٩

شعبَ بوّان[١] يا غرام القصيد يا نشيداً على شفاه الغيد
أنت لحن على فم الدهر يرويه بأنغام بلبل غرّيد
خالدٌ أنت في خيال المحبّين ، فهل تشتكي دوام الخلود
ومقيم في فاطر عرف الحسن حبيّاً عند الظلال السود
قد تغنى بحسنك المتنبي فأنتشى بالجمال كالعربيد
عاش حيناً ما بين ظلٍ وماءٍ عند سفر ملوّن بالورود
هدأ القلب في حماه ونامت ذكريات المعذب المفئود[٢]
يا له الله من جمال عجيب نام كالطفل في المهاد السعيد
تسبح العين في نداه فتروى من ظلالٍ طريّة كالخدود
وتعب الأسماع منه لحوناً كالأماني شجية الترديد

١٦٠

كل هذا الجمال كان غريبا عن فؤادٍ متيّمٍ بالعروبه
عشق الحسن في مجاليه لكنّ مجاني الأحسان كانت حبيبه
ما رأى الشعرُ في نواحيه وجهاً عربيا أو همسةً محبوبه
منظر عاثت الأعاجم فيه فشكى غربة الزمان الكئيبه
ومكان ما ضافهُ بدويٌ رائق اللفظ ، تعرف الأذن طيبه
وشجا الشاعر الكبير نزوح عن بلادٍ بأهلها منكوبه[٣]
لهف نفس البيان هل تصبح الارض قواءً بالحادثات الرهيبة
ويعود الانسان في كل صقعٍ عربياً يمشي بأرض غريبة
أقفرت تلكم المغاني من الحسن وباتت كالصورة المقلوبة
إن خير الجمال عندي جمال عربيٌ صفاته منسوبة

---

(١) هو شعب بوان الذي نظم فيه قصيدته الشهيرة وهو من عجائب الدنيا . (٢) المفؤود : المحزون . (٣) أي بلاد العرب .

١٦١

فوجيء الشاعر الكبير بمن جاء يؤدي اليه قولا جديدا
« الرئيس الاستاذ » يسأله السير فهل يخجل الرئيس «العميدا[١]
كان في « أرّجان[٢] » أستاذ فن يستوي حكمة ورأياً سديدا
وبيانا يشع علما وذوقاً وشعوراً يكاد يغدو فريدا
حبّر الكتب والرسائل حتى جازت المدن والقرى والبيدا
ولقد كان مولعا بأبي الطيّب يرجو لقاءه الموعودا ...
أدرك الحسنَ عنده فشجاه وروى شعره قصيداً قصيدا
هو من سادة البيان ولا بدع اذا قدّر البيان الحميدا
هو جار في الفنّ ، وهو رفيق عرف الشعر ناقداً معدودا
وأبو الطيّب العظيمُ به أدرى ولابد أن يلاقي النديدا[٣]

١٦٢

ذاك إبن العميد ، أكرم به شهماً وزيراً وكاتبا لا يُجارى
فأراد المرور في ارجان علّه يُبلغ الرئيس اعتذارا
ولدى إبن العميد قد لقى الخير وكانت ايامه أخيارا
ورأى الكاتب الاديب ولاقى عنده الانس والرضى والفخارا
وسقاه المديح كأسا مريئا وشرابا مصفّقا وعقارا
فانتشى الكاتب الكبير فقد نال مديحا من شاعر لا يُبارى
شاعر الحكمة الرفيعة والفحل الذي خلّد الهوى أشعارا
والذي يهرع الملوك اليه يتمنون سَيْبَه المدرارا
والذي يأنف المديح اذا لم يجد الكفء عزة ونجارا
والذي لم يهب غشوماً ولم يخش أميراً ولم يخف جبّارا

---

(١) هو الوزير الشهير الاديب ابن العميد ممدوح المتنبي .
(٢) مدينة في خراسان . (٣) النديد النِدّ المثل .

١٦٣

غير أن الرئيس كان عليماً بمزايا الشعر الأصيل الموفق
فرأى المدحة التي طالعته كلماً أجرءَ المعاني مزوّق
ليس فيها ما يغمر القلب حُسناً أو يريح الفؤاد لحناً ومنطق
قد خلت من بواعث الشعر حتى ظنها السامعون نظماً منمّق
وكلاماً مصنّعا ليس فيه نفحة توقظ الهوى فيحلق
ودرى الشاعر الكبير برأي كان أولى بما أراد وأخلق
أين ذاك الألهام كالخمر طيباً أين ذاك الاحساس عذبا مروّق
ان شعراً ، من التكلف ، لا يروي فؤادا بفنه قد تعلّق
اصدق الشعر ما يفيض من القلب شرابا كالخمر عذباً مُعتّق
وجمال القريض ما مرّ كالنفس العاطر ، بالطيب والاماني يعبّق

١٦٤

سكت الشاعر الكبير على النقد فقد كان عالماً كيف يصنع
كان يرمي ، الى الذي كان عن قصد واهدى الاستاذ مدحاً مقنّع
كان يأبى أن يصبح الشعر رهناً بأمير أو مالك أو ممنّع
أو زعيم يملي عليه الذي شاء اعتسافاً كمن يضر وينفع
وجزاه ببسمة تُخنق الرائي وتؤذي بما تكنُّ وتوجع
وشعور الرئيس أدرى بما في صنعة الشعر من هوى أو تصنع
ثم جاء الاستاذ يحمل عتباً لم يكن خافيا ، فقال ، وأبدع :
انما يُطلبُ العظيم من الشعر لدى شاعرٍ اذا قال اسمع
طالما قلت من قصيدك ما سار بعيداً ، وطالما كنت تبدع
فأعدْ نفحةَ الجمال لشعر بات مهوى القلوب في كل موضع

١٦٥

يا رفيق الآداب ، قد كنت أرجو منك مدحاً يفوق كلّ مديح
انما نحن في البيـان رفيقـان كلانا رب البيـــان الفصيـــح
والقوافي وإن شردنَ بعيـداً عن فؤادي ، فانهنّ بروحـي
أنا أحيا أنغامهنّ وأهـــوى ما عليهنّ من رواءٍ مليــح
أنظم النثر مثلما تنظم الشعر وشـتان بـين جســمٍ وروح
غير أن الصلات ، مهما تناءت بيننا فهي محكمات الصـروح
فأقِل عثرة القصيد وأدركني بمدح كالغيث عذبٍ مُريــح
أدرك الشاعر الكبير مكان اللوم من خاطر الرئيس الجـريح
فأتاه بمدحة تغســل العيب وترضـي بمـا تشـير وتوحـي
ذاك شعر يرضي الفؤاد بلمح كالأماني يغني عن التصـريح

١٦٦

وأنتهت زورة البيان « بأرجَّان » ورام الســفار نحـــو الأمـير
عضد الدولة الذي طبق الـدنيا صداه بالحزم والتفكـــــير
ملك يفهم الحيـاة ويمشـــي في ركاب الزمان غير غرير
فهو في عزة المـلوك ، يحب الشعر حبُاً كالعشق ملء الشعور
ولقـــد رام زورة المتنبـــي شاعر الفن والبيان الشـــهير
فمضى الشاعر الكبـــير بقلب مفعمٍ بالـــولاء والتقـــدير
شاكراً رحلة أفاضت عليـــه من إخاءٍ كالماء عـــذب نمير
وأعز الصحاب عند أولي الفنّ صديق في الفن صافي الضمير
حلة الفنّ والصناعة والآداب أسمى من العطـــاء الكثـــير
ربما يعجب الفؤاد حـــديث يغمر القلب بالرضى والسرور

١٦٧

ومشى الشاعر الكبير ، الى شيراز يطــــوي الجبــــال والأوداءَ
في ديار كأنها جنــة تهتزُّ في ظــل خضــرة تتراءى
تشرق النفس من حــــلاوة مرآها وتندى هناءً وصفـــاءَ
وكأنَّ الرائي المطلُّ عليهـــا عاشق يرقب الحبيب مساءَ
خضرة كالخضم ماجت سهولا وتلالا تبدي هوى وحيـــاء
ولقد انبيء المليك بأن الشاعر الفحل قد يجيء عِشــــاء
وسيروي نوافح الشعر فـــي قــول فصيح قد حيَّر الفصحاء
مقول شافَهَ الحياة فأولتــــه بياناً كالنبــع فاض غنـــاء
وقصيداً يحوي الزمان ويروي حكمة كالزمان تشفي الظمـاءَ
وكلام كأنه نغــم الأوتـــار يُصبي الآفـاق والاجــواء

١٦٨

ودرى العارفون أن أبا الطيِّب آت نحو المدينـــــة قــادم
فتنادوا الى لقاء أمير الشــعر ، زين القريض ، أكبر ناظــم
ومضوا خارج المدينة في عرسٍ بهيج يفـوق كلَّ المواســـم
والمليك العظيم أرسل وفـداً للقـاء الضيف المُبيَّن بالعالم
وتراءات ركاب شاعرنا الفحل على صفحـــة المســـاء الغـائم
وتعالى الهتاف من جانب الناس رقيق الصدى وكالهمس ناعم
ومشى الشاعر المدلَّ بخطـوٍ كخطا الليث أو كمشي القشاعم
وعلى وجهه سحاب من الهم وفي مقلتيه نظـــرة حالـــم
وكأن البيـــان أرخى عليـــه من سماء البيان لمحة ساهم
وتلقاه تائقـــاً عضـــد الملك بقلب حلـــو اللقـــاءة باســـم

١٦٩

عرف الشاعر المجيد بشيراز زماناً كالفجر حلواً نديا
ورأى الفخر يملأ الخاطر المحزون حتى رأى البقاء هنيًا
ورأى دولة تميل اليه تسأل الشعر رائعا عبقريا
ومليكا عذب الحديث شجى اللطف صافي الشعور شهما ذكيًّا
يحفظ الشعر حفظ من يفهم الشعر ويدري ما كان منه خفيا
قد أحب الشعر الجديد وأولاه احتفاءً وكان براً وفيا
وأبو الطيّب الذي ملأ الدنيا غناءً كالطير عذبا شجيا
ملك الشعر والبيان فلم يترك حسوداً أو حاقدا أو غويا
وقوافيه كالأماني حسان تملأ الارض والزمان دويا
سيد الملك ضافه شاعر المجد فكانا كالورد صادف ريّا

١٧٠

أيها الشاعر الذي حلّ ارضي عش بأرضي كالخصب ضيفا كريما
إنه المجد أن تكون بدارٍ عرفت قدرك الرفيع العظيما
فأقطع العيش رافها ودع اليأس وخلّ الرجاء ليْناً رحيما
أنت اولى بكل قصد نبيل يجعل المعجزات درّاً نظيما
لا ألاقيك كالملوك فأني أتلقاك لي صديقاً حميما
فتقبل اعجاب ملكٍ وفيٍ قد أحبّ الآداب حباً صميما
وأرح نفسك الغداة من السقم فقد طالما غدوت سقيما
وأنسَ ماضيك إنّه زمن غصّ ببؤس المنى فكان لئيما
لا تخافن عهدا عرفت لياليه عجافاً والصبح جهما دميما
سيزول الشقاء عنك بأذن الله فأسعد ما دمت عندي مقيما

١٧١

وقضى سيد الكلام بشــيراز زماناً كالــورد حلــواً وســيما
وانتحى الشاعر العظيم ففاض الشعر من قلبه شهياً رخيمـا
وتهادى المديح يخطــر في شيراز تيهاً ويســتهل كريمـا
عجب السامعون من شعر شــاعرنا الفحل وذاقوا جماله المنظوما
حفظوه حفظ الرضى وتغنــوا نغم الفن حاليـا منغـــوما
وكأن الايام تحمل للدنيــا أريجــاً من شعره ونســيما
وكأن الزمان أقبــل يروي معجزات القريض وحياً نظيما
وكأن الدهر اللعــوب مغنٍ وكأن البيــان بات نديمـا
حلية زفَّها الزمان بشــيراز فماجت طلاقــة ونعيمــا
وتراءى المساء فيهــا رخيّاً يملأ السهل والربى والكروما

١٧٢

وتوالت قصائد المــدح ترى وهي كالزهر يملأ الدار عطرا
ولقد سُرَّ بالمديح مليــك كان أولى بكل مدح وأحرى
ملك حرَّك البيــان ففاضت منه آياتــه تمايـل شــعرا
غير أن الايام وهــي سريعــات توالت كاللمح يوماً وشهرا
وأراد « الجعفيّ » أن يترك الدار ويمضي بسرعة البرق سبرا
فلقد كان باشــتياق كبــير لصديق ما زال يهواه سرّا
قد أتاه من أبن حمــدان علمٌ أنــه يشتهي لقــاءً وزورا
وكأن الايام قد أعجلتـــــه فأراد الرحيل غصباً وقســرا
قد دعته منيَّة[1] خفيت سهما على الناس ريش سمَّاً وقهـرا
وأتى في الصباح يسأل إذناً ببراحٍ يبقى على الدهر دهرا

(١) قتل المتنبي في رحلته هذه وهو عائد من شيراز .

١٧٣

سمع الحاسدون يوماً حديث الملك يثني على القريض ويمدح
ذكر الشاعر الكبير وغنّى بعض أبياته ففاض وصرّح
ومضى الحاسدون دساً وايذاءً ولؤماً كالسيف يفري ويجرح
زعم القائلون أن أبا الطيّب قد أنكر العطاء ولمّح
ذكر انالك الأمير بقول يزعم البخل بالمليك ويقدح[1]
وكأن المليك قد صدّق القول درسا اذا تنوقل يقبح
قد رموا خاطر المليك بنار لم تدع ذلك الهوى يتفتح
وكأن « الجعفيّ » قد صار عبداً خائناً ينكر الوفاء ويسفح
وفؤاد الملوك يستقبل الدسّ ويرضى بالريب قولا ويسمح
ورفيق الملوك في خطر الشّك ، فلن يبلغ الرجاء وينجح

١٧٤

لم يكن شاعر العروبة يأبى صحبة للمليك طابت زمانا
فلقد أكرم المليك فتى الشعر ولاقى في جانبيه الأماما
غير أن المليك قد كان ملكا أعجميا شمائلا ولسانا
وأبو الطيّب العظيم يحب العرب قوماً ويبتغي قحطانا
شاعر العرب لا يحب سوى العرب فلا تنكرنّ منه بيانا
هكذا كان ، لا يغيره الدهر حياة وصحبة ومكانا
وقضى الله أن يودع ملكاً أريحيا ويهجر الاخوانا
ومضى الشاعر الكبير الى بغداد يبغي الابناء والاوطانا
وكأن الايام قد أنذرته بمصير يهدد الانسانا
سفر كان سوف يذكره الدهر ويبقى على الاسى عنوانا

---

(١) ذكر ان المتنبي سئل عن عطاء عضد الدولة وسيف الدولة فقال : ان سيف الدولة يعطي عن طبع وهذا يعطي عن تكلف ٠ وسئل لم كان شعرك عند سيف الدولة خيرا منه عند عضد الدولة فقال : ان الشعر على قدر البقاع ٠

١٧٥

في ثنايا الاقدار شيء غريب	غامض السر لا تراه القلوب
سترته الحظوظ فهو خفـــيٌّ	وهو كالموت سهمه لا يخيب
قادر في خفائه ، باطش الكفّ ، عنيــف اذا تراءى ، مصيــب
يحمل الفجر حيث شاء فيلقيه	بعيداً ، وهو القــريب القريب
ولقد تظهر الحظوظ فتبــدو	باسمات عطــاؤهن عجيــب
ولها ومضة تخيف واخـرى	تعجب النفس فهي نور غريب
ولقد تنذر الحياة بشـــرٍ	مستطير خيــاله مرهـــوب
فيعيش الانسان منها بخـوفٍ	دائم ظاهر الاذى لا يغيـب
حكمة للوجود عاش بها المرء	جزوعاً ضاعت عليــه الدروب
بين شكٍ يقيمه وارتيـــاب	يملأ النفس ، فهو شــاك كئيب

١٧٦

لو درى المرء ما تخبئـه الاقدار	في صـدرها لعاش أمينـــا
ولكانت أيامه زهـــــراتٍ	في سـهول الحيـاة تندي العيونا
ولكأس الحيــاة في دعة كـالماء	يجـري مسـلسلا مـوزونا
غير أن المقدار يبقى خفيـاً	مستمـرّاً طيّ الغياب دفينــا
خاطرات مرت بشـــاعرنا الفذ	فزادت همومــه تمكينـــا
وأثارت هواجسا في فـــؤاد	عاش في الهم والشقاء سنيا
شاعر يعرف الحياة ويبقـى	هائـم القلب حائراً محـزونا
مرهف الحس لا يطيق سـكوتا	يشتكي دهره العنيد الحرونـا
ويرى العيش والحياة كتابـا	يكمن الغيب دونه مكنـــونا
قلبــه دائـم السؤال ، بعيــد القصد مُذ جنّ في السؤال جنـونا

١٧٧

ويح قلب أصابه الخطأ القـاتل حتى أعـاده مشـلولا
ذلك الفضل كان في كـل شيء عبقريا يجاوز المعقـولا
فرمى نفسه بعيدا ولم يرحـم حيـاة تحـاول المستحيلا
شرب الماء آسناً ولقـد كان يعاف المـروّق المعسـولا
أخذته حماقة تملك الطفـل ولا تملك الفـؤاد النبيـلا
ولقد زلّ من علاه الى الارض فلاقى الهوان فيها جديلا
عثرت نفسه الكبيرة بالحمـق فأضحى في اثرها مقتـولا
ذلك الطائر الـذي مـلأ الاجواء شعرا تخالـه ترتيـلا
قد رماه بسهمه حادث الدهر فأمسى على الحضيض ذليـلا
خطأ انزل العظيم عن المجـد ليلقى مصـيره مغلولا

١٧٨

أين من شاعر الخليقة طفل ماله في الوجود ، قبل ، وجودُ
هو لولا هجاء رب القـوافي مات كالهرِ ما عليه شـهود
تافه عاش في الحياة خبيثـاً وحقير تغـار منه اليهـود
وبذيء اذا تشـهّد قـال الهُجر فالهُجر قوله المعهـود
سكن « الحصن[1] » نائيـا عن حياة الناس فالحصن عرشه المهـدود
وتناءى عن الـرجال ليبقـى جُرَذاً عن هواته لا يحيد
نسيته الايام قصداً فأمسـى في هوانٍ كأنه مقصـود
وجفته الاقدار حتى كأن الـدهر عن كل شـأنه مزءود[2]
تلك أوصافه ، ولست أزيـد الـوصف ، فالقول قاصر لا يفيـد
غير ان الحظوظ قد رحمته آخر الامر فاصطفـاه الخلود

---

(١) هو الحصن الذي تحصن به ضَبَّة يوم شتم المتنبي وجماعتـه فهجاه . (٢) المزءود : المذعور .

١٧٩

شاعر كان يستقل ملوك الارض شأنا وعزةً وجنودا
أنزلته الاقدار حتى رمته عند حصنٍ يسبُّ فيه وليدا[١]
كان لا يرتضي الملوك فلانت نفسه فأستكان طفلا عنيدا
يا لسخر الايام اذ حلَّ يوما عند قومٍ لم يلق فيهم نديدا
فأتاهم ، فأكرموه ، فباتوا في لقاءٍ ، وبات فيهم سعيدا
ومضوا في الصباح ، بينهم الشاعر ، يروي على الرجال القصيدا
وصلوا بعد سيرهم قرب حصنٍ فوق تلٍ تخاله مهدودا
غير أن الرفاق ما وقفوا حتى تعالى صوت أتاهم شديدا
وسباب من البذاءة يؤذي وكلام يشابه التهديدا
ولقد خصَّ بالسباب أبا الطيِّب حتى أثار فيه الركودا

١٨٠

وأتاه الهجاء يهدر كالسيل ويرمى « الغلامَ » بالأهوال
لم يدع أصله ولا والديه فهو شلو يسير في اسمال
وقضى أن يكون نذلا حقيراً بين أهلِ أذلةٍ أنذال
« ضبة » كان ثم أصبح ضبّاً تافه الشأن لا يمر ببال
وغدت أمه مثار الأضاحيك ومهوى للسخر والاذلال[٢]
وهجا قومه بكل فظيع فمشى قومه بثوب بال
يا لذاك اللسان كم جرح الأعداء بالسيف باتراً والنبال
مقول ينفث الشواظ ويُلقى حمماً تلتظي بكل مجال
وكلام مجرِّحٌ يترك المهجُو في حيرةٍ وفي بلبال
رحم الله من أساء فقد ألقى بذكراه في جحيم صال

(١) كان ضَبّة ولدا يافعا حين هجاه المتنبي • (٢) استهل المتنبي قصيدته بسبب ام ضَبّة في قوله :

ما أنصف القوم ضبه وامه الطرطبه

١٨١

يا لسخر الأيام لو سكت الشاعر دهراً في عصر ذاك النهار
فلقد هيَّج العِداء بشتمٍ بالغ السُم ، باضع الآثار
شتم التافه الغلام ولم يفطن لعيب وراء ذاك العار
غير أن المقدار أملى عليه فتولى ضحيه المقدار
كيف تنحطُ يا زعيمَ القوافي من مكان عالٍ لادنى قرار
كيف ساويت ذلك الولد المنبوذ في الشتم والسباب العاري
كيف هاجيت هيِّن الجرم والأصل ولاقيت تافه المقدار
إنها غفلة العباقرة الأفذاذ ترمي بمجدهم للدمار
إنها ضحكة الزمان من الفضل وسرٌ من أعظم الأسرار
إنه الحمق ، يا لذل الحماقات ، أناخت بالمقول الجبار

١٨٢

وأحس « الجعفيِّ » بعد زمانٍ أنَّه اخطأ الكلام وتاها
ملكته ندامة لا تداوى(١) ولو أن الممات قد داواها
فرأى نفسه الكبيرة تهوي في خضم من الاسى يغشاها
ورأى ذلك الغلام بأعلى الحصنِ يبدو بهجوه تياها
وتولى الى الوراء فلاقى سمعة الشعر قد أضاعت مناها
أي نفع اذا أصاب بهجوٍ تافها بالهجاء قد يتباهى
أيِّ معنى للذم في من يراه حِليةً يعجب الحقير ضياها
يا لك الله شاعراً سليَّ النعمى فلاقى المنون حين سلاها
لو تذكرت أن شأنك ضخم يرفع الشأن عالياً والجباها
لتمنعت عن هجاءِ حقيرٍ خدَم الحظ اسمه يوم فاها

---

(١) كان يكره رواية هذه القصيدة وذكرها .

١٨٣

يا لذكرى تمرُّ في خاطر الدهر فتلقي على الحياة ظــلالا
أيروح العظيم هيناً رخيصــاً بعد أن يملأ الوجـود جمالا
ثم يغدو[١] مُرمَّلاً في مكــانٍ لا يرى فيه عزةً أو جلالا
وتكرُّ الايام وهو طــريحٌ في عراءٍ، يعـانق الآجـــالا
وكأن الحياة لم تفتقد شيئاً ولم يخسـر البيـان مقـالا
ضربتــه منيَّة أســكرته وسقته من كأسها جريالا[٢]
دفعته الى غمــارٍ وبيــل فاذاقتــه في الغمار الـوبالا
كم هجا الدهر ليس يخشى أذاه واستقلَّ الاخطار والاهـوالا
فرمته بغدرها بعــد حينٍ فأصابت منــه حشاه فمــالا
ليت تلك المنون أبقت عليه ورمت، دونه الألوف رجـــالا

١٨٤

لم تُعقْهُ الذكرى الخجول عن السير فوالى مسيره عجــلانا
غير أن الهواجس الســود نابتــه فألقت بصـدره نيرآنـا
وهدته الى المصــير وان لم يرَ ما يضمر الزمان عيـانا
وكأنَّ المنون لاحت لعينيــــه فباتت حيــاته أشـــجانا
لم تهادنه رحلة « الحصن » بــل أصبـح يهـذي بذكرهـا أحيـانا
واسم ذاك اللعين « ضبَّة » لم يتركه سراً في النوم أو يقظانا
هاجس عكَّر البقــاء عليـه وأثار الشـكوك والـوجدانا
وكساه لوناً من اليأس خوفاً فهو يبدو مضعضعاً حـيرانا
هو في الصبح ساهم وهو في الليل كئيب يســامر الأحـزانا
قـد درى قبـل موتـه أنه ماضٍ وان انتهـاءه قد حـانا[٣]

---

(١) رمله بالدم : لطّخه • قال ابن الرومي في قصيدة البصرة :
وجوه قد رملتهــا دمــا" بأبي تلـكم الوجوه الدوامي
(٢) الخمر • (٣) اشار المتنبي في آخر قصيدة له عند عضد الدولة عن تشاؤمه هذا •

١٨٥

ودّع الشاعر المودّع(١) شيراز بقلب قد بات في اوجال

سار والهمُّ في الركاب الى بغداد ، دار الآداب أمّ الرجال

معه « مفلح » (٢) وكان غلاماً مشرق العقل طيب الافعال

وصبيٌّ هو ابنه ولقد كان جميلا بل آية في الجمال

كان هذا ركب البيان وكان الدرب مأوى اللصوص والجهّال

وطريقاً يخافه الناس مما فيه من خشية ومن أهوال

غير أن «الجعفيّ» كان شجاعاً عرك الدهر ، فارساً لا يبالي

قطع العمر بين طعن وضرب وقضى العيش دائم الترحال

ضاع منه رجاؤه فمضى يبحث عنه في عالم كالخيال

سار في مهمهٍ من العمر يرجو غاية كان لمعها كالآل

١٨٦

وصل الشاعر الكبير الى دير قديم سمّوه بالعاقول(٣)

عاش فيه نهاية العمر ما بين صديق وصاحب وخليل

كان فيه له صديق قديم يتمناه من زمان طويل

و « أبو نصر(٤) المهاب كريم يأخذ العين كالأمير النبيل

قد أحب الشعر الطريف ، وقد يرويه ذوقاً بصوته المقبول

كان يرجو لقاء شاعرنا الفخم ويرجو سماع شعر جميل

فبدت فرحة اللقاء عليه ولقاء الصحاب مثل الشمول

ورأى ما بوجهه من شحوب وسهوم وخاطر مشغول

فأتاه عند الصباح وقد شاهد ما عند ضيفه من نحول

ما بك اليوم يا صديقي ؟ فان الحزن باد عليك مثل الدليل

---

(١) المودع هو الذي قرب موته . (٢) غلام كان للمتنبي .
(٣) دير الى الشرق من بغداد قتل الشاعر بعد خروجه منه . (٤) صديق المتنبي وكان في تلك المنطقة وقد حذر المتنبي من سفره وحيدا .

١٨٧

أنا أنوي السفار نحو أحبائي فالقى « الشهباء » والاصحابا
قد تشوقت للقاء فقلبي ليس يألوا لقاء صحبي طلابا
وأنا الشاعر الوفيّ ، فؤادي ما سها عن محبّة أو حابى
مخلص الود صادقٌ ، كل قلب صدق الودّ لا يطيق اغترابا
فأتركن عزمتي « أبا نصر » تمضي فتلاقي الاخوان والاحبابا
لا تعر قولة العواذل أذناً إن عندي ، لما يقلن ، جوابا
وغداً تسمع القصيد فتدري أيّ سهم رميته فأصابا
أنا رب القصيد ، ينظم شعري مقول صارم يجيد الضرابا
ولساني اذا أفاض بشعرٍ سكر الدهر من قصيدي شرابا
ستنوح الديار بعد ذهابي باكيات : لقد تولى وغابا(١)

١٨٨

يا أبا الطيب العظيم تمهّل في سفارٍ أراه غير جليّ
لا تخاطر بالعيش سيرا بأرض عمرت بالخبيث أو بالشقي
وتريث لعلّ رأياً يُريني ما يكون الغداة أو بالعشيّ
أنت دنيا بين الانام فلا ترم بأنفاس شاعر عبقريّ
أنت ملك للعرب جمعاء ، ملكٌ لبناء مؤثل يعربيّ
طالما نافحت شباتك عن أمجاد شعب محاربٍ اريحي
لست ملكا لنفسك اليوم ، أنت اليوم ملك لمجدك الابدي
كيف ترضى لقاء دربٍ بعيد في مكان من الانام خليّ
فتمهل أجارك الله ، وأرحم مقول الشاعر العظيم الأبي
أنت مجدٌ لأمتي ، أنت تاج فوق عصر مخلد أدبي

(١) يلاحظ ان المتنبى اخذ يذكر حساب النهاية القريبة وهذا ما اشار اليه اكثر المؤرخين ٠

١٨٩

نظر الشاعر الكبير « أبا نصر » بعين فيها سؤال عميق
قال : ماذا تريد ؟ قل لي صراحاً أو تخشى شيئا ، وكيف الطريق
أبه ما يخيفني ، أم ترى فيه رجال لقاءهم لا أطيق
وعلام الخوف الذي أنت فيه أنت والله مشفق أو فَروق[١]
أو تخشى عليَّ من عتمات الليل ، قل لي ، أم في الفؤاد خفوق
يا أبا نصر إنني رجل في الحرب جلدٌ ، وفي اللقاء صدوق
لا أخاف الممات ، بل حبذا الموت ، اذا رامني البلاء المحيق
إن نفسي لتنفث الضجر القاتل حتى تضيق عنه العروق
اتركنّي « أبا نصير[٢] » فقد ضقت بعيش ، وكل عيش يضيق
ودع الموت يغمر الارض حتى ما يُرى فوق ظهرها مخلوق

١٩٠

صمت الناصح المضيف ولم ينبس ، ولكنه بدا محزونا
فلقد أدرك الامور بعمق عرفت كل ما عسى أن يكونا
وأبو نصر الذي خبر الدار عليمٌ ما يضمر الحاقدونا
قد أتته جماعة أنذرته أن في عطفة الطريق كمينا
يسأل الناس هل أتاهم أبو الطيب أم هل رأوه في الدرب حينا
ولقد خلّفوا رجالا على الدرب ، وناساً من صحبهم وعيونا
انهم طغمة ، بنو أسد يبغون شراً في العالمين مبينا
هم يريدون قتل شاعرنا الفذ وقد أقبلوا عليه مئينا
قد هجاهم وكان هجوا كريها أقلق الشيخ منهم والجنينا
ورماهم بالهجو سباً سيبقى أبد الدهر باسمهم مقرونا

(١) الفروق والفرّوق : الشديد الفزع ، والفروقة للرجل والمرأة على السواء • (٢) كان ابو الطيب يستعمل التصغير كعادة او ظاهرة خاصة فيه ، للتعظيم والتحقير على السواء •

١٩١

يا أبا الطيب استمع لكلامي   أنا أدرى بما وراء كلامي
لا تكن جاهلا ولا تمض مغرورا   بهذا الشباب والاقدام
فالشجاع ، الشجاع من شاور العقل   ولم ينخدع مع الاوهام
قد أتاني أن الطريق مخوف   وعليه عصابة من طغام
إنهم يا أخي بنو أسد   يبغون قتل السُميذع القمقام
فاستمع ما اقول وأترك لجاجا   قد يؤدي الى الردى والحمام
وأمكثن مُدّةً لديَّ فأني   سوف أعدو عليهم بحسامي
إنهم يحذرونني ، فهي أرضي   ومكاني منذ الصبا ومقامي
يا أبا الطيب الذكيِّ تأمل   قولتي هذه ونم بسلام
دع حديث السفار واهدأ قليلاً   فعسى ينجلي سواد الظلام

١٩٢

غير أن « الجعفي » ثار على الناصح حمقاً   كالنار في البركان
قال قولا كأنه لغة الاطفال عجباً ، أو قولة السكران :
ألمثلى تقول هذا ، واني   سيد الناس فارس الفرسان
ابنجو[١] الطيور ترهبني يا شيخ ، أسكت ، فما أنا بجبان
قسماً لو تركت في الشط شيئاً   من ثيابي أو عدتي أو حصاني
والمغيرون « معطشون لخمس[٢] »   فهم من ظمأ على نيران
ما استطاعوا ورود ماء قريب   فيه ذكر من شهرتي وبياني
فدع القائلين يُغلون ما شاءوا   فاني في راحة وأمان
سيموت الخصوم كرها وحقدا   وسأبقى برغم أنف الزمان
فأسترح يا أبا نصر ولا تخش حديث الملفّق الخوان

(١) نجو الطير : فضلاتها . (٢) هذه العبارة مأخوذة بحرفها من كلام المتنبي .

١٩٣

ثم عادا للصمت ، غير أبـي نصر فقد كان ثائـر الوجـدان
لم يطق هدأة السكوت فجاء الشاعر المـدّعي برأي ثـان
قال : اني رأيت رأيا حميدا فتقبل ما يرتأيـه جنانـي
سر أبا الطيب الصديق على اسم الله ربيّ وأسلك طـريق الرّعان(١)
قال : ماذا تقول ؟ ذاك كـلامٌ ليس يغني شيئا عن الانسان
قال : خذ ما تشاء خيلا ورجـلاً قال : إني عن ذاك في غنيان(٢)
قال : هم يركبون بعدك في الـدرب فـلا تبتئس من الفرسـان
قال : لا أقبل الحماية ، إنـي أنا وحدي حمايـة لزمانـي
قال : إني نصحـتُ والله أدرى بضميري والصدق في تبيانـي
قال : نعم الصـديق أنت ، ومشكور ، ولكنني خبير بشـاني

١٩٤

كان ذاك النهار يـوم وداع لابي نصر الجميـل الطبـاع
كان حزناً لا ينقضي ، فلقـد ناء بحمـل الهموم والاوجـاع
كان يهوى « الجعفي » فهو لديـه شاعر مسرع الخطا للضيـاع
وهو كنزٌ ما مثله أبداً كنزٌ من المال والحُلى والمتـاع
إنه لُقية الزمـان ومجـدٌ للنفوس الكبـار والاسـماع
وحرام أن يذهب المجد هدراً بين أنياب طُغمة أو رعـاع
سوف يقضي عليه « فاتـك » المشهور بالختل والاذى والخداع
إنه فارس يغـامر بالـروح وبالجسم في سـبيل النـزاع
وهو خال « لضبةٍ » وهو للثـأر ، سريع في سيره جد سـنع
لا يهاب القتال ، فانظـر الى «الجعفي» ماذا يلقى بهذا الصراع

---

(١) بدا رعن الجبل ورعانه : انف شاخص منه ، وجبـل ارعن : ذو رعان . (٢) ذاك : تعود الى قول ابي نصر : على اسم الله ، ونص كلام ابي الطيب : انها كلمة لا تضر ولا تنفع . (٣) أي هو مسـتغن عن الحماية .

١٩٥

وأفاق الصديق عند الصباح فرأى الدار في أسىً والنياح
ذهب الشاعر العظيم وخلّى أسفاً ظاهراً بكل النواحي
تلك كانت خطيئة لابي نصر جنتها الدنيا بغير جُناح
ليته أرسل الرجال ليحموا شاعر الخافقين بالارماح
لو مشوا خلفه بعيدا لكانوا جُنَّةً من شجاعة وسلاح
غير أن المقدار شاء ، فلا تجزع لمن مات في مجال الكفاح
وكأنَّ الايام ملَّت من الشاعر طول اعتداده والجماح
أو كأنَّ الاقدار رامت خلاصا من عنيف مفوَّه فضماح
أو كأنَّ الحياة قد كرهت منه هجاءً كالسم للأرواح
ويحها قد رمت أعز لسانٍ وفصيح يفوق كل الفصاح

١٩٦

لم يكد يبلغ المسافر في السير مكاناً يُراح منه قليلا
أو يذوق الطعام ، حتى أرته العين ناسا من حوله وخيولا
ورجالا كالجنِّ ليس عليهم من لباس الرجال الا قليلا
وصياحا أتاه مثل عزيف الجنِّ أودى بنومه ، وصهيلا
فأستفاق « الجعفي » ينظر ما ذاك ، وقد راح فكره مشغولا
وعلى القوم فارسٌ أشعث الشعر وقد سلَّ سيفه المسلولا
فهو كالسهم ، لا يَقرُّ ، وكالبرق سريعاً عند الطراد عجولا
وكأن المكان أصبح بركانا يثير الغبار عرضا وطولا
وكأن الصباح ليلٌ وافق الليل نار تكاد تشوي السهولا
وطراد الفرسان قعقعة الرعد ترامت صواعقاً وسيولا

١٩٧

نهض الشاعر الكبير ، فوافاه نداءٌ يهددُ الرئبالا
قال : يا شاعر المقابح والشتم تهيأ فسوف تلقى الوبالا
جئتَ للثأر فاستعدَّ لموتٍ تخسر المجد فيه والاموالا
لستِ بالشاعر الشريف لتحيا انما جئت تسرق الاقوالا
قد هجوت الانام ، لم تخش قتلا فانظر اليوم فارسا قتالا
لن يراك الرواة الا طريحاً أو قتيلا مقطعا أوصالا
ايه يا قاذف الحرائر[1] لا تجزع فقد كنت ترهب الاجيالا
منحتك الحياة شعرا أسأت الرأي فيه فصار شتماً حلالا
ورعاك الملوك حتى سبيت الناس ظلماً وسمتهم اذلالا
بئس من قال ، أنت شاعر حرب لست الا مخادعاً ختالا

١٩٨

لم يكد يبلغ الكلامُ أبا الطيب ، حتى أتته روح النضال
فاستوى واقفا ، وصاح بصوتٍ كهزيم الرعود والزلزال
أنا عند الذي تقول[2] فمهلا أنت يا ابن اللخناء ، وانظر فعالي
أتراني أخاف مثلك أو اخشى كلاماً من خائر قوّال
سوف تلقى ما لا تحب من الحرب فأقدم بالسيف ، أو بالنبال
وتنظر مني قتالا كدفع السيل بين الصخور والاجبال
وتأمل ضرباً تشيب له الولدان حتى تبكي على الآمال
يا «سراج»[3] انتظر وهات سلاحي وأنلني سيفي وقف بحيالي
[أفرغ[4] الدرع يا سراج وابصر ما ترى اليوم ها هنا من قتال]
[فلئن رحت في المكرّ صريعاً فأنع للعالمين كلّ الرجال]

---

(١) فاتك هو اخو ام ضبه التي شتمها المتنبي في قصيدته ، ويروى ان فاتكا حين قتل المتنبي وكزه برمحه وقال له : قبحت هذه اللحية يا قاذف المحصنات • (٢) كلام قاله المتنبي حين قابل فاتكا وحمل عليه -
(٣) اسم العبد الذي كان مع المتنبي كما روى بعض المؤرخين -
(٤) هذان البيتان آخر ما قاله المتنبي قبل موته •

١٩٩

ومشى الشاعر المدِّل بعزم يقهر الصخر قوَّةً واعتزاما
فرمى واحداً فأرداه أرضاً ورمى ثانياً فمال وناما
ورمى ثالثا فأقبلت الخيل عليه ضراوةً واحتداما
فتنحى شيئاً وأخرج نبلا فكسا القوم من يديه سهاما
وتولت عنه الجياد وراحت تكره العدو نحوه والصداما
يا له فارساً لقد صدق القول وكان المحارب المقداما
وهو يرغى كالفحل ثار به الاقدام واليأس حوله يترامى
ورأى فاتكاً فأقبل يلقاه ولكنه تولّى وهاما
قال : اقبل يا ابن التي ملأت دنياك ذلاً وحطة وغراما[١]
أنا زين الفرسان ، فأثبت اذا شئت لتلقى من ساعديَّ الحِماما

٢٠٠

واستطال القتال حتى تعالت شمس يوم مجلّلٍ بالغبار
وأستمرّ النهار والحرب ما زالت على شدَّة كوهج النار
وأبو الطيِّب المقاتل يرمي كل خصم بسيفه البتّار
فتولّى غلامه يحمل الجسم بجرح في صدره نغّار[٢]
وتناءى بنجله[٣] عن لظى الحرب فقد كان يافعاً في الصغار
وأراد الرجوع عن حومة الحرب وعن هجمة الخصوم الضواري
ورآه العبد الجريح فأوما بكلام للفارس الكرار
قال : اين الذي نظمت من الشعر ، أتنسى ما قلت من أشعار
أوما قلت أنك البطل الفرد ، أترضى بالجبن أو بالفرار[٤]
قال : اِخسأ ، قتلتني أيها النذل ، فخذ مهجتي ، وبؤ بالعار

(١) اشارة الى سوء أخلاقها . (٢) نغّار .. جيّاش بالدم . (٣) كان ولده محسد معه وقتل ايضا . (٤) يروى المؤرخون ان العبد ذكره بقوله : الخيل والليل والبيداء تعرفني ... الخ .

٢٠١

وأنثنى راجعا يكر كما كرّ مع الليل عاصف هدّار
وأتته الخيل السراع وقد كان وحيداً تنوشه الأقدار
فرماها برمحه وعلاها بحسام حديده بتار
وأحسّ الشجاع بالأين يمشي في يديه كأنها تنهار
وأحس الغزاة أن أبا الطيّب قد خار قلبه الجبار
وخبا صوته المجلجل ، وانزاحت قواه ، وطال فيه المَغار
وأتى فاتك يغير عليه ثم ولّى وقلبه خوّار
وأتى الشاعر المناضل يبغي فاتكاً فهو خصمه الختّار(١)
غير أن الاقدار شاءت ،فدار الدهر وارتد عزمه الجرار
وارتمى تحته الجواد ، وغاصت رجله(٢) ، فارتمى به المغوار

٢٠٢

وأحاطت به الجياد ، وقد امسى على الارض خائر الأوصال
همَدَ العزم في الخضمّ ، ونام الموج من بعد شدّةٍ وصيال
وكأن الانفاس تخرج من فيه ضعافاً كزفرة الأعوال
وكأنّ الحياة تهرب من فيه ، وتمضي عن جسمه المنهال
لمست جسمَه الرماح فلم يعبأ وأهوى بالسيف فوق الرجال
غير أن السيوف كثر ، وما ينفع سيف في عشرة أمثال
وأتاه عدوه فرماه فاتك بالحسام غير مبال
فجرى من وتينه(٣) دمه القاني وسال النجيع فوق الرمال
وهو ينقّض تارة وهو يكبو كسراج ما فيه غير ذبال
أطبق المقلتين وانتفض الجسم قليلا ، ومال نحو الزوال

---

(١) الختر : اقبح الغدر ، والختار : الغدار . (٢) كذا تروي الرواية التاريخية . (٣) الوتين : عرق في القلب ، ووتن الماء ، يتن وتونا : دام ولم ينقطع .

٢٠٣

وأتى فاتك وقد جمد الثأر بعينيه خائر العنفوان
فرماه بضربة من جبان فصلت رأسه عن الجثمان
وعلاه بوكزةٍ وهو يهذي بكلام من غادر خوّان
قاذف المُحْصَنات(١) كيف غدوت اليوم ، قل لي ، يا شاتم النسوان(١)
قُبِّحت لحية(١) بوجهك كانت ترسل الهجو من سليط اللسان
وأغار الفرسان فانتهبوا الشاعر واستحوذوا على الغلمان
قتلوا نجله « المحسَّد » لم يبقوا على يافع من الشبّان
ثم عاثوا بكتبه وبأوراق من الشعر روعةٍ في البيان
ومضوا كالوحوش لم يدفنوه بتراب يقيه ذل الهوان
فغدا العبقريّ تحت نجوم الليل طعماً للبوم والغربان

٢٠٤

من رمى شاعر العروبة بالموت فراح البيان منه يتيما
من وهاه بضربةٍ ضيّعته فغدا في يد القضاء رميما
كان دنيا من البيان اذا أنشد بات الزمان صباً نديما
أيها القاتل الذي سرق الدهر كبيرا بين الرجال عظيما
ويح ثأرٍ طلبته لم يخلف في نفوس الرواة الا هموما
لو تأملت ما تخلف من شر لما كنت قاتلا أو أثيما
كان خطئاً في العقل أن تأخذ الشاعر بالقول ان اراد نظيما
كان ظلما أن تخفت الصوت في أوج صداه فينثني مكتوما
قد حرمت الاجيال من شاعر الشرق ، وكنت الجاني ، وكنت اللئيما
شُلتِ الكف إذ رمت سيد الشعر غناءً يروى وقولا حكيما

(١) هذا كله من كلام فاتك .

٢٠٥

اذرفي يا عيون دمعك وابكي أسد الشعر ، فارس الشعراء
وأنع للناس يا زماني شعراً صرعته الاحقاد في بيداء
تركته تسفي الرياح عليه من رمال وتربة وهباء
من يغني الحياة بعد أبي الطيب بل من يجود بالآراء
ويداوي الجراح بالحكمة الغراء تشفى قلوبنا بالدواء
اللسان الجريء قد منعته كل قول عصابة الغرباء
قسماً ما رمته ايدي لصوص بل رمته جناية الأعداء
كرهوا العرب فاستباحوا دم الشاعر روح العروبة السمحاء
أخذوا ثأرهم بقتل أبي الطيب في ظل دولة عمياء
حرموا العرب من لسان عجيب كان سيفا في الغارة الشعراء

٢٠٦

يا فؤادي مات القريض فولّت دولة الشعر في زمان الفساد
وخبا ذلك السراج وقد كان ضياه يجوب كل بلاد
كان للعرب شاعراً وحكيماً رائع القول طيب الانشاد
يتلقاه كل قلب أريب ويغنيه كل طفل شاد
ويرى فيه كل شهم أصيل ثورة من عروبة وجهاد
لن يجود الزمان يوما بشهم كأبي الطيب الرفيع العماد
خذلته الايام ، بل خانه الاصحاب من سادة ومن قواد
أين سيف(١) لآل حمدان قد أعجب بالشاعر الكبير الفؤاد
وأبن عمّار(٢) أين كان وما شأن حسين(٣) في حالكات العوادي
اين نثر(٤) بأرجان ، وملك(٥) عند شيراز ربة الامجاد

(١) هو سيف الدولة • (٢) هو بدر بن عمار ممدوح المتنبي •
(٣) هو ابو العشائر ابن عم سيف الدولة وممدوح المتنبي • (٤) اشارة الى الكاتب ابن العميد • (٥) اشارة الى عضد الدولة •

٢٠٧

لم يجد شاعر العروبة منهم أحداً يوم غالَه الأعـــداء
أخذوا مـدحه ، ونالوا ثنـاه ثم أغضــوا وكلُّهم نسـّاء
تركوا الشاعر الكبير ينـادي أين قومي فلم يجبه النـداء
وتواروا عن الوقيعـــة لمّا خاضها وحده فسـالت دماء
هو ادرى بهم ، وقـدماً هجاهم ولقد روّحوا ، وظل الهجـاء
يشبعون الايام حـربا وإمّا شبّت الحرب فالملوك نسـاء
يسألون المديح حقاً جزافـاً والمديح الحلال منهـم بَراء
جمعتهم حوادث الدهر ناسـاً خلتهم من تفاهة الدهر جاءوا
أرهبتهـم آمالـه فتـواروا وشكا من رجائـه الجبناء[1]
ثم خانوه يوم ثار ، فولّـوا خشية مثلما تولّي الشاء[2]

٢٠٨

كان للفرس جفوة وعـــداء أرّثتهـا الاحقـاد والبغضـاء
كرهوا شاعر العروبة إذ كان عنيفـاً يخافـه الغـربـاء
ورأوا شاعر العروبـة نجمـاً في الليـالي بنوره يُستضاء
قد هجا الفرس حين خانوا الخلافات وجارت عن قصدها الخلفـاء
وارادوا استعادة الأمل الماضي وللفـرس مأمـل ورجـاء
لم يغيِّر إسلامهم عن هواهم حين همّت بغدرهم أهـواء
غدروا ، ثم عذبوا ، واسـتباحوا ما جنته الخلافة الشـلاّء[3]
وأنبرى الشاعر الكبـير يرد الخصم والشعر سيفه والمضـاء
فتهاووا عليه هجواً وكرهـاً وهو في الساح صخـرة صمّاء[4]
ورأى نفسه وحيـدا فجالت نفسه من أسىً وبح النـداء

(١) كان ممدوحو المتنبي يحسبون حسابه حين كان يطلب الملك .
(٢) المقصود الملوك العرب لا الفرس . (٣) اشارة الى قتل المتوكل ومن بعده من الخلفاء . (٤) يقول المتنبي :
انا صخرة الوادي اذا ما زوحمت واذا نطقت فانني الجوزاء

٢٠٩

ومضى ذلك الرجاء كأن لم يملأ الارض عزة ومضاء
وخبا النور ، فالزمان ظلام يغمر الدرب وحشة خرساء
وكأن الحياة ليل طويل لا ترى فيه ومضة أو ضياء
وأنزوى الشعر يلطم الخد حزناً حين أمسى عميده أشلاء
ويح كف رمت أمير القوافي كيف لم ترم طغمة امراء
وملوكا على العروش وتيجانا يذوب الزمان منهم حياء
ورجالا اذا نظرت اليهم خلتهم من تفاهة أشياء
سودوا صفحة العروبة وانصاعوا عبيداً وأطرقوا استخذاء
ورموا عن جبينهم عزة الفتح فما يحسنون إلا البكاء
قد أذلوا التاريخ حتى تولَّى شاكي النفس ، حائرا مستاء

٢١٠

من لتلك الأبيات ولَّت هباءً في سماء تنهل بالاحزان
القوافي على الثرى عاريات شاحبات كالدمع في الاجفان
والاغاريد حولها باكيات شاعر العالمين رب البيان
والأماني غريبة شاردات تتشاكى جريحة الألحان
والليالي تضج فيها المراثي عند قبر مشعث البنيان
وفتى الشعر(١) يذكر الشعر بالدمع ويرثى رب القوافي الحسان :
[لا(٢) رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا بمثل ذاك اللسان]
[ما رأى الناس ثانيَ المتنبي أي ثان يُرى لبكر الزمان]
[كان من نفسه الكبيرة فى جيش وفي كبرياء ذي سلطان]
[هو في شعره نبيٌّ ولكن ظهرت معجزاته في المعاني]

---

(١) هو ابو علي الطبنسي الذي رثى المتنبي ٠ (٢) ابيات الطبنسي٠

الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام

مديرية الثقافة العامة
سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث
(٣٢)

السعر (١٥٠) فلسا

١٣٩٣ - ١٩٧٣

دار الحرية للطباعة - مطابع الجمهورية - بغداد